الباب الرابع

نتائج وآثار

« حين كنت أكتب الجزء الأول من « رأس المال » ، كان أبناء الجيل الجديد ، أولئك الأدعياء المتهورون التافهون يباهون بأنهم ينظرون إلى هيجل نظرتهم إلى « كلب ميت » . . . . لذا بادرت وأعلنت صراحة أنني لست إلا تلميذاً لهذا المفكر العملاق . . » .

« كارل ماركس – رأس المال »

الفصل الأول

الجدل الماركسى

أولا – محاولات غريبة

٣٤٧ – لن تجد بين مؤسسى الماركسية من يجادل فى الأثر الذى تركه الجدل الهيجلى على فكر ماركس ، وهو أثر يتعدى الحدود الضيقة التى يعلمها اليوم كثير من الماركسيين – بل ستجدهم مجمعين على أن الجدل الماركسى ليس إلا محاولة لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميادين جديدة وهم يعترفون بذلك صراحة دون أن يجدوا فى هذا الاعتراف حرجاً ولا غضاضة : « فقد كان ماركس وأنجلز ، يريان فى جدل هيجل أوسع مذهب من مذاهب التطور ، وأوفرها مضموناً وأشدها عمقاً ، وأثمن اكتساب حققته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . . وكانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب ، فقيرة المضمون ، تشوه وتفسد السير الواقعى للتطور . . فى الطبيعة والمجتمع . . »[١].

وكان ماركس يقول دائماً : « إن الإطار المثالى الذى غلف الجدل الهيجلى ، لم يمنع هذا الرجل مطلقاً من أن يكون أول من عرض الصورة العامة للجدل بطريقة واعية وشاملة . . »[٢] بل نراه قبل إصدار كتابه « رأس المال » يعيد قراءة منطق هيجل ويقول فى رسالة إلى « إنجلز » « . . لقد ألقيت فى البحر بنظرية الربح التى ظهرت حتى الآن ، أما من حيث المنهج فقد عدت من جديد وألقيت نظرة سريعة على منطق هيجل الذى خدمنى خدمة كبرى . . »[٣]. ولقد لخص إنجلز رأى الماركسية فى عبارة جامعة حين كتب إلى « شمت » يقول باختصار شديد

---

(١) V. Lenin : "Marx, Engels, Marxism". p. 20 & Selected works. Vol. I. p. 36.

(٢) K. Marx : "Capital". Vol. I. p. 20.

(٣) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 100.

« من المستحيل أن نستغنى عن هيجل . . . »[١] . فهو على حد تعبيره « ملحمة جدلية »[٢] .

٣٤٨ — وعلى عاتق «لينين» كانت تقع مهمة التطبيق العملى للنظرية الماركسية، وإقامة المجتمع الشيوعى لأول مرة . ولذا نراه فى سنوات التحضير للثورة يعد نفسه فلسفياً فينقطع ثلاث سنوات فى مكتبه ببرن بسويسرا ، ويعكف على قراءة مؤلفات هيجل ، ويقف طويلا عند المنطق الكبير يلخص ويشرح ويعلق ، ثم يقرأ ما كتبه الشراح والنقاد من أمثال : ستّرلنج ، ومكتجارت ، وبيلى . . وغيرهم . ويخرج فى النهاية بهذه النتيجة : «يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم « رأس المال » لكارل ماركس — لا سيما الفصل الأول منه — ما لم ندرس منطق هيجل ونفهمه بأكماله ، ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمان ، ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين !! »

ولهذا نراه يحرص على علاج هذا النقص عند الماركسيين بعد الثورة، فكان أهم ما يشغل باله هو إرساء قاعدة فلسفية متينة للمجتمع الجديد، فكتب فى العدد الثالث من مجلة «تحت راية الماركسية » (مارس — ١٩٢٢) — مقالا أطلق عليه الماركسيون أنفسهم اسم «وصية لينين الفلسفية» لأنها آخر ما كتب فى الفلسفة[٣] . يدعو إلى إقامة قاعدة فلسفية راسخة وصلبة ويرى أنه ما لم يتحقق ذلك « فإن العلم الطبيعى، والمذهب المادى ، لن يستطيعا الصمود فى نضالهما ضد هجمات الأفكار البرجوازية المتلاحقة . . »[٤] وليس من سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا إذا تجمع المثقفون والمفكرون والكتاب ، وتضافرت جهودهم «للقيام بدراسة جادة وواعية للجدل الهيجلى، وتفسيره تفسيراً مادياً ، ذلك الجدل الذى طبقه ماركس عملياً فى كتابه رأس المال، وفى مؤلفاته السياسية والتاريخية» . بل يرى لينين أن الأمر لا يقتصر على مجرد دراسة الجدل الهيجلى وشرحه ، وإنما يجب أن يتعداه إلى الدعاية لهذا الجدل . وهو يعترف بأن هذه مهمة شاقة وعسيرة وقد تكون عرضة لكثير من

---

(١) Ibid. p. 436.

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 274.

(٣) O. Yakhot : "Dialectical Materialism". p. 221.

(٤) V. Lenin : Selected Works Vol. 3. p. 721.

الأخطاء لكنها مع ذلك ضرورية ولازمة ، ولا مندوحة عن القيام بها : « إذ لابد أن ندعم هذا الجدل من جميع الجوانب ، فنقوم بنشر مقتطفات متنوعة من مؤلفات هيجل الرئيسية ونفسرها تفسيراً ماديًّا ، ونشرحها مستعينين بأمثلة من الطريقة التى طبق بها ماركس الجدل ، ومستعينين كذلك بشواهد من ميدان العلاقات الاقتصادية والسياسية » .

ثم يصل لينين فى نهاية هذا المقال إلى قمة الفهم الناضج لوضع الجدل الهيجلى فى الفلسفة الماركسية حين يقول : « وفى اعتقادى أن جماعة المحررين والمساهمين فى مجلة «تحت راية الماركسية » يجب أن ينظموا صفوفهم فى جماعة تحمل اسم « جماعة الأصدقاء الماديين للجدل الهيجلى» . وسوف يجد علماء الطبيعة المحدثين ، إذا ما عرفوا سبيل البحث الصحيح وإذا ما عرفنا نحن كيف نساعدهم — سوف يجد علماء الطبيعة حين نفسر الجدل الهيجلى تفسيراً ماديًّا ، مجموعة من الإجابات عن المشكلات الفلسفية التى أثارتها الثورة فى العلم الطبيعى» .

ويرى لينين أنه ما لم يضع المذهب المادى نصب عينيه القيام بهذا العمل وتحقيقه تحقيقاً منظماً فإن المادية لن تصمد فى كفاحها ، وسيجد علماء الطبيعة البارزين أنفسهم عاجزين عن القيام بالاستنتاجات والتعميمات الفلسفية التى جعل منها تطور العلم الطبيعى وتقدمه الهائل ضرورة لا غنى عنها .

٣٤٩ — غير أن اعتراف مؤسسى الماركسية بفضل الجدل الهيجلى بهذه الصورة لم يرق — فيما يبدو — لكثير من الماركسيين الغيورين على ماركس أكثر من ماركس نفسه ، والذين عز عليهم أن يحرم من شرف اكتشاف هذا المنهج . فظهرت تيارات غريبة حاول بعضها أن يسدل الستار نهائيًّا على هيجل ، أو أن يهون على أقل تقدير من شأن الدور الذى لعبه منهجه الجدلى فى الفلسفة المادية الجدلية . وحاول أن يجد له أسانيد من ماركس نفسه ، فراح يتصيد عبارات مما كتب ويفسرها على هواه . ويبدو أن «جوزيف ستالين » كان على رأس هذا الفريق الذى حاول أن يطمس المعالم الهيجلية بأى شكل حتى ولو بالخروج عن أبسط حدود الأمانة العلمية[1] . يقول فى كتيبه الصغير « إن ماركس وأنجلز يشيران عادة إلى هيجل

---

(١) يستشهد « ستالين » فى كتيبه الصغير الذى وضعه عن الجدل بمثل من إنجلز عن التغيرات =

حين يعرفان المنهج الجدلى ، غير أن ذلك لا يعنى قط أن جدل ماركس وإنجلز **هو نفسه جدل هيجل** فهما لم يقتبسا من جدل هيجل سوى « نواته العقلية» وطرحا غلافه المثالى ثم : **وسعاه ، وأعطياه طابعاً علمياً حديثاً ..** »[1] . وستالين هنا يحاول أن يهون من شأن التراث الجدلى الهيجلى. فماركس لم يأخذ من هذا التراث سوى « النواة العقلية » مجرد « نواة » لا أكثر ولا أقل. ولم يدرك ستالين — الذى لم يقرأ هيجل فى أغلب الظن — أن «النواة » التى كان يقصدها ماركس هى **منطق هيجل كله**، وأن هيجل شرح هذه « النواة » فى ثلاثة مجلدات — فضلا عن الموسوعة — وأنها ثمرة جهد شاق وئيد ضم بين جوانبه كل ما أطلق عليه الماركسيون فيما بعد اسم « القوانين الأساسية للجدل » ، و « القوانين الكلية للحركة » ، و «المقولات الماركسية» و « نظرية المعرفة » ، وما أطلق عليه ستالين نفسه اسم « خصائص المنهج الجدلى الماركسى » بل لم يدرك ستالين أن كتيبه هذا ليس إلا انعكاسات سطحية لما كتب هيجل .

٣٥٠ — وانساق كثير من الماركسيين فى هذا التيار، فعمدوا إلى إغفال ذكر هيجل عند الحديث عن « القوانين الأساسية للجدل » أو عند الحديث عن « مقولات الجدل » لكى يفسحوا الطريق لرفع لافتات جديدة عن «قوانين الجدل الماركسى » ، و « مقولات الجدل الماركسى » ، ولهذا تعمدوا إزاحة هيجل ليظل ماركس وحده فى الصورة ، فتراهم يتحدثون عنه فى الثوب المثالى فقط حين يعرضون للحديث عن « الصراع بين المثالية والمادية » ولا بأس من أن يذكروا فى هذه المناسبة كلمة تاريخية سريعة عابرة عن «جدله المثالى » وما فيه من صوفية ، ثم يركزون بشكل ظاهر على الجانب المثالى من فلسفته ، ولا يفتأون يرددون

= الكمية أخذه الأخير عن هيجل ولكنه أشار صراحة إلى المرجع وهو الموسوعة (انظر جدل الطبيعة ص ٨٧) غير أن ستالين يسوق النص كما لو كان مثلا يضربه إنجلز (انظر كتابه ص ٨) . ومما يدعو إلى الدهشة أن نجده بعد ذلك بقليل يقطع سياق حديث إنجلز ليحذف سطرين يقول فيهما إنجلز « أما الميدان الذى تلألأ فيه قانون الطبيعة الذى اكتشفه هيجل وكلل بانتصارات بالغة الأهمية فهو ميدان الكيمياء . . . إلخ . « جدل الطبيعة ص ٨٧ — ٨٨ . وواضح أن ستالين تعمد حذف اعتراف إنجلز باكتشاف هيجل لهذا القانون . ضارباً بالأمانة العلمية عرض الحائط حتى فى اقتباس النصوص الماركسية نفسها .

(١) J. Stalin : "Dialectical and Historical Materialism". p. 7.

« الأخطاء » التى وقع فيها ، والآراء الاجتماعية « الرجعية» التى عبر عنها مغتبطين بعثورهم على مجال واسع للنقد والتجريح . وكثيراً ما يطيب لهم الحديث عما يسمونه « التخريف الميتافيزيقى عند هيجل . . » ، بعد أن أفاضوا فى الشرح والتعليق ، والمدح والثناء على « جدل الواقع » الذى كشف عنه ماركس » .[١] حتى انتهى الأمر أخيراً إلى القول بأن هيجل « شوه الجدل كما فعل أفلاطون من قبل فى نظريته عن المثل . . .[٢]» .

٣٥١ — ومنهم من يتفق مع التيار الأول فى الهدف والغاية وإن اختلفت الوسيلة ، فتراهم يتصيدون هذه المرة عبارات من إنجلز لينتهوا إلى هذه النتيجة الغريبة وهى « إذا كان هيجل قد رد للجدل اعتباره ، فهو لم يكشف عن أسسه الموضوعية . . »[٣] . إلا أنهم لا يفسرون لنا المقصود بهذه « الأسس الموضوعية» أهى تعنى مثلا أن هيجل كان لابد أن يكون ماديًّا حتى لا تطارده اللعنات . . ؟ أغلب الظن أنهم لا يقصدون بها شيئاً سوى فتح الباب لإغداق الثناء على ماركس وإنجلز لاكتشافهما المنهج الجدلى « بأسسه الموضوعية السليمة » ..

والغريب فى هذا الفريق أنه لا يعتبر هيجل مصدراً ومنبعاً للجدل الماركسى بل يذهب إلى أن ماركس وإنجلز قاما بدراسة العلوم الطبيعية دراسة فاحصة ثم استخلصا منها هذا المنهج « فلم يأت ماركس وإنجلز بالمنهج الجدلى من الخارج بطريقة تعسفية . بل استخلصاه من العلوم نفسها على أساس أن موضوعها هو الطبيعة الموضوعية التى هى جدلية ». : وبالتالى فالدور الذى لعبه هيجل فى تاريخ الفلسفة عديم القيمة بالنسبة للماركسية على الأقل لأن اعتماد ماركس لم يكن ينصب على هيجل وإنما على العلوم الطبيعية « ولهذا السبب تتبع ماركس وإنجلز طوال حياتهما تقدم العلوم . فكان المنهج الجدلى يتحدد فى دقة بقدر ما تتعمق معرفة العالم . . » ولهذا السبب أيضاً لم يكن من الممكن أن يكتشف المنهج الجدلى

---

(١) الأستاذ محمد مفيد الشوباشى : «الفلسفة السياسية» ص١٢٧ دار الكشاف ببيروت ١٩٥٥ .

(٢) Yakhot : op. cit. p. 128.

(٣) G. Politzer, G. Besse, & M. Caveing : "Principes Fondamentaux de Philosophie". p. 28.

على أيدى الماديين الفرنسيين من فلاسفة القرن الثامن عشر من أمثال « ديدرو »، « وهو لباخ » و « هلفيتيوس » ، لأن العلم فى القرن الثامن عشر لم يكن يتيح لهم ذلك » . ففكرة التناقض وصراع الأضداد وغيرهما من الأفكار الجدلية «كانت عند القدماء مجرد تخمينات أما عند الجدل الماركسى فهى مستخلصة من الحقائق التى جمعها العلم نتيجة أبحاثه فى ميادين شتى ، ذلك لأن دراسة ظواهر الطبيعة ، والعلاقات الاجتماعية ، ونشاط الإنسان العقلى، تكشف عن متناقضات كثيرة ، وعن صراع بين اتجاهات وجوانب متعارضة »[١]. ولهذا فإن عدم تطور العلوم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر جعل المادية فى هذا الوقت لا تستطيع أن تتبع بشكل منطقى فكرة تطور العالم وترابطه ولهذا كانت مادية ميتافيزيقية[٢].

وأهم المكتشفات العلمية التى ظهرت فى عصر ماركس وإنجلز ومكنتهما — فى رأى هذا الفريق من اكتشاف المنهج الجدلى ثلاثة ذكرها « إنجلز » فى كتاباته المختلفة وهى :

١ — اكتشاف تحول الطاقة ، وهو الذى أنتج فكرة التغير الكيفى، وأظهر أن مختلف القوى الفزيائية عبارة عن وجود لحركة المادة .

٢ — اكتشاف الخلية الحية . وهو الذى كشف سر تركيب الكائنات العضوية الحية وسمح بإدراك كيفية انتقال العالم الكيمائى إلى العالم البيولوجى ، وفسر تطور الكائنات الحية .

٣ — نظرية التطور عند دارون التى هدمت الحاجز الميتافيزيقى بين مختلف الأنواع من ناحية ، وبين الإنسان وبقية الطبيعة من ناحية أخرى .

« وكان من اللازم لكى يصل الفكر إلى إدراك المدلول الكامل لهذه المكتشفات أن تتوفر له بذرة المنهج الجدلى (لعلهم يقصدون بذلك الإشارة إلى هيجل) ، ثم كان من اللازم أن توجد عبقرية ماركس وإنجلز »[٣] .

٣٥٢ — وعلى الرغم من أن إنجلز ذكر فعلا هذه المكتشفات الثلاثة ، إلا أنه

---

(١) Fundamentals of Marxism — "Leninism". p. 77.

(٢) Science, Man, and Society. p. 35.

(٣) G. Politzer. op. cit. p. 155.

كان يذكرها دائماً على أنها شواهد وأدلة على صحة الجدل الهيجلى . وقد كتب وهو يتتبع المكتشفات العلمية الجديدة إلى ماركس يرجوه أن يرسل له فلسفة الطبيعة لهيجل لأنه يريد أن يتأكد مما إذا كان هيجل قد لمح بفراسته المعتادة شيئاً من هذه المكتشفات . ويقول فى نفس الرسالة إنه لو عاش هيجل الآن وأراد أن يكتب فلسفة الطبيعة من جديد : « فسوف تنهال عليه الحقائق من كل صوب »[١] . . والحق أن إنجلز كان يهتز طرباً كلما ظهر اكتشاف جديد لأنه يعد دليلا جديداً على صدق القوانين الهيجلية . وكان يعتبر التقدم العلمى دفعة قوية لتطبيق الجدل الهيجلى فى شتى المجالات ، ولذا فإن النتائج العلمية الجديدة لابد أن يسر لها هيجل لو امتد به الأجل .[٢]

فإنجلز لم يخطر بباله قط ما يدعيه الماركسيون اليوم من أن المكتشفات العلمية هى التى مكنت الماركسية « من استخلاص المنهج الجدلى » . وإنما نراه على العكس من ذلك تماماً حين يتحدث عن اكتشاف الخلية يقول : « . . الخلية هى الوجود بالذات عند هيجل ، وتطورها يتم بالضبط وفقاً للعملية الهيجلية التى تنتهى أخيراً بالفكرة ، أعنى بالكائن الحى الجزئى المكتمل »[٣] . ويقول لماركس عن اكتشاف الطاقة : « . . . هناك نتيجة أخرى سوف يسر لها هيجل العجوز وهى ترابط القوى فى علم الطبيعة ، أو القانون الذى تتحول بواسطته القوى الآلية — تحت ظروف معينة — إلى حرارة وضوء ، وتتحول الطاقة الكيمائية إلى كهرباء والكهرباء إلى مغناطيسية . . »[٤] .

وحين يتحدث عن نظرية التطور يقول : « إن نظرية التطور عند دارون تعد بمثابة البرهان العملى على تفسير هيجل للرابطة الداخلية بين الضرورة والصدفة . . »[٥] . بل نراه يذهب فضلا عن ذلك إلى القول بأن الفسيولوجيا لا يمكن أن تكون علماً ما لم تأخذ بفكرة هيجل التى ترى أن الموت عنصر ضرورى

---

(١) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 109.

(٢) نفس المرجع السابق . وانظر الأمثلة التى يسوقها على ذلك فى جدل الطبيعة (٨٧) .

(٣) Ibid. (٤) Ibid.

(٥) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 401.

وعامل جوهرى للحياة ، وأن « سلب » الحياة موجود أساساً فى الحياة نفسها ، وبالتالى فلا يمكن التفكير فى الحياة إلا من حيث علاقتها الضرورية بالموت الذى تحمل فى جوفها بذرته .

٣٥٣ — لم يقل إنجلز — إذن — أنه استخلص فكرة التناقض أو غيرها من الأفكار الجدلية من دراسته « للعلوم الطبيعية » أو « العلاقات الاجتماعية » أو « نشاط الإنسان العقلى » ولم يزعم قط أن هذه المجالات هى التى مكنته من وضع القوانين العامة « للجدل الماركسى » بل لم يدع أصلا أنه وضع أية قوانين للجدل[١] . وإنما نراه على العكس يسمى هذه القوانين دائماً باسم « القوانين الهيجلية » وكل ما كان يرجوه أن تتيح له الظروف أن يقوم بمحاولة جاده وكاملة لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان هذه العلوم الطبيعية . وهذا واضح من الرسائل المتبادلة بينه وبين ماركس لا سيما منذ عام ١٨٧٣ وهو العام الذى كتب فيه إلى ماركس يبدى هذه الرغبة ، ويعرض عليه « بعض الأفكار الجدلية عن العلوم الطبيعية ، راودتنى وأنا جالس فى فراشى هذا الصباح . . »[٢]. وظلت هذه الأمنية تعتمل فى نفسه دون أن يتمكن قط من تحقيقها ، وإنما ظلت كتاباته فى هذا الموضوع مجرد تخطيطات مبدئية ، ومسودات متفرقة لا يضمها كتاب منظم . وعلى الرغم من أنها جمعت ونشرت أخيراً لكنها — لسوء الطالع — لم تر النور إلا فى عام ١٩٢٥ أى بعد وفاته بثلاثين عاماً ، حين نشرت تلك المخطوطات التى تمثل محاولات إنجلز لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية تحت عنوان « جدل الطبيعة » . وسوف نعود إلى تحليلها فى نهاية هذا الفصل .

والحق أن الباحث ليعجب أشد العجب حين يقرأ لبعض الماركسيين قولهم إن الماركسية استخلصت الجدل من ميدان العلوم الطبيعية وغير الطبيعية ، فى الوقت الذى يقول فيه لينين — مثلا — عن مقولة السببية عند هيجل « إنه على الرغم من طابعها

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن إنجلز لم يكن يعتقد أن هيجل « وضع » قوانين الجدل ، لأنه ليس فى قدرة الإنسان أن « يضع » مثل هذه القوانين الموضوعية ، لكن هيجل « اكتشفها فحسب » كما يكتشف العلماء قوانين الطبيعة تماماً ، وتلك نفسها فكرة هيجلية . قارن فقرة ١٤٩ من هذا البحث .

(٢) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 281.

الداخلى المثالى فإنها تشير إشارة عميقة إلى الأسباب التاريخية للحوادث ، فقد وضع هيجل التاريخ **وضعاً تامًّا** تحت مقولة السببية ، ثم فهم السببية أعمق وأخصب آلاف المرات من فهم الكثرة الغالبة من « علماء هذه الأيام » . . » .[١]. دع عنك علماء القرن الماضى . بل يذهب « إنجلز » إلى القول بأن القوانين الهيجلية هى التى أتاحت لمندلييف — الذى طبقها دون أن يشعر أن يضع الجدول الدورى الشهير الذى ارتبط باسمه ، وهو الجدول الذى صنف فيه العناصر الكيمائية ورتبها ترتيباً تصاعديًّا من أخفها — الأيدروجين إلى أثقلها — اليورانيوم[٢] .

٣٥٤ — نحن إذن نعارض تلك المحاولات الغريبة التى تنحو بالفلسفة منحاً حزبيًّا وسياسيًّا خالصاً ، فتطلق على الجدل الهيجلى اسم « الجدل الماركسى » ، وعلى مقولات هذا الجدل اسم « المقولات الماركسية » ، وتجاهد ما وسعها الحيلة لكى تختم هذا الجدل بخاتم « الماركسية — اللينينية » . حتى اختفت تلك العبارات الأمينة التى لم تكن تعرض لفكرة من الأفكار الجدلية — بالغاً ما بلغت بساطتها — إلا وتردها إلى صاحبها كأن يقول لينين مثلا « الجدل كما شرحه هيجل يتضمن عنصر النسبية والشك ، ولكنه لا يمكن أن يُردَّ إليهما . . »[٣]. أما الآن فقد حل محلها عبارات تثير من الرثاء والإشفاق ، قدر ما تثير من السخرية والامتعاض ، فهذا واحد من الماركسيين يعرض لنفس الفكرة البسيطة وبنفس الصيغة لكنه يقول بنغمة حزبية واضحة : « يعلمنا لينين أن الجدل يتضمن عنصر الشك ، لكنه لا يمكن أن يرد إليه . . » [٤] . ولقد كان لينين لا يذكر جدل هيجل إلا بقوله « ذلك الجدل الهيجلى العظيم . . »[٥] . ويصفه بأنه « أعظم ما أنجزته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية . . » ويرى أن الدنيا بأسرها تسير وفقاً لإيقاعه الذى لا يفلت من قبضته القوية شيء لا فى العالم المادى ولا فى

---

(١) V. Lenin : Coll. Works. Vol. 38. p. 160.

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 90.

(٣) V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 135.

(٤) O. Yakhot : "Dialectical Materialism". p. 115.

(٥) V. Lenin : Selected Works Vol. I. p. 467 & Marx. Engels Marxism. p. 134.

العالم الروحى ، حتى إن الخلافات التى تقع للرفاق داخل الحزب الشيوعى نفسه لا يفسرها تفسيراً صحيحاً ، ولا يلقى عليها الضوء الساطع إلا ذلك الجدل الهيجلى العظيم : « إذ ليس الشوفان وحده هو الذى ينبت وفقاً لإيقاع المنهج الهيجلى ، بل إن الاشتراكيين الديموقراطيين الروس أنفسهم لا يقتتلون إلا تبعاً لهذا المنهج نفسه . . »[١] .

وهو ينظر إليه دائماً فى إكبار وإجلال يفوقان الحد . ومن كان فى شك من ذلك فليقرأ كتابه الموسوم باسم « المذكرات الفلسفية » وهى فى معظمها تعليقات وشروح على مؤلفات هيجل لا سيما المنطق الكبير — وسوف يلتقى فى صفحات لا حصر لها بعبارات الاستحسان والتقدير والإعجاب ، يكتبها لينين — من فرط انفعاله — بأربع لغات مختلفة . ويمكن للباحث أن يقارن ذلك باللافتات الجديدة التى تقول : « الجدل المادى الماركسى هو أعظم وأشمل وأخصب نظرية للتطور والحركة ، إنه تلخيص للمعرفة البشرية عبر القرون الكثيرة الماضية ، وهو تجميع لمعطيات لا حد لها من العمل الاجتماعى . . »[٢].

٣٥٥ — إذا كنا نعارض تلك المحاولات المذهبية الغربية التى لابد أن ماركس يتبرأ منها لو ظهرت فى حياته ، كما تبرأ من قبل من « الماركسيين » الفرنسيين فى نهاية سبعينات القرن الماضى حين قال « إن كل ما أعرفه هو أننى لست ماركسيًّا »[٣]. والتى لابد أن يقول عنها إنجلز كما قال من قبل : « إن أغرب النفايات تأتى من هؤلاء الماركسيين »[٣] . — أقول إذا كنا نعارض تلك المحاولات اليائسة ، فإننا نعارض معها تلك العبارات المطاطة التى تقول إن الماركسية « **تأثرت** » بالجدل الهيجلى ، كما تأثرت بمادية فويرباخ ، وذلك لسببين : الأول أن الماركسية لم تتأثر بمنطق هيجل ، وإنما **نقلت عنه نصًّا وروحاً** ، دون أن تضيف إلى الجدل الهيجلى إضافة واحدة حتى إنه لا يجوز أن يقال إن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » ، وإنما أدق تعبير لاستخدام الماركسية للجدل الهيجلى هو ذلك الذى جاء على لسان

---

(١) Fundamentals; p. 59. (٢) Ibid. p. 467.

(٣) K. Marx & F. Engels : Selected Works. Vol. 2. p. 486.

(٤) Ibid. p. 490. & Select. Correspon. p. 419.

لينين فى دعوته للرفاق للانتظام فى جماعة تحمل اسم « **الأصدقاء الماديين للجدل الهيجلى** » .

وثانياً : لأن الأثر الهيجلى على الماركسية بصفة عامة لا يمكن أن يوضع فى صف واحد مع أى أثر آخر ، وعلى ذلك فمن الضلال أن نقرن أثر هيجل بأثر فويرباخ . إذ فضلا عن أن ماديات فويرباخ قد خرجت من أحشاء المذهب الهيجلى نفسه ، فإنها — ويغير الجدل الهيجلى لا وزن لها ، ولا هى مما تميز الماركسية عن غيرها من الفلسفات المادية ، لكن العكس غير صحيح . ذلك لأن المذهب المادى قديم قدم الفلسفة ذاتها ، وصوره كثيرة ومتعددة ، والتفسير المادى للعالم كان شائعاً — قبل فويرباخ نفسه — فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، غير أن الماركسية رفضته لأنه كان تفسيراً ماديا ميكانيكياً بحتاً . أما المنهج الجدلى كما عرضه هيجل فهو منهج فريد فى نوعه كما يقول فيندلى . ودراسة صورة الفكر ومقولاته هى كما يقول إنجلز « عمل لم يضطلع به أحد منذ أرسطو غير هيجل » . ومن هنا فإن ما يميز الماركسية أساساً عن غيرها من الفلسفات المادية السابقة هو إضافتها الجدل الهيجلى إلى المفهوم المادى عن الطبيعة والعالم . وباختصار لو لم يظهر « فويرباخ » فى تاريخ الفلسفة لكان من الممكن للماركسية أن تعثر على التصور المادى من الفلسفات المادية الأخرى فى حين أنه « لولا هيجل لما كانت هناك اشتراكية علمية » . . . ومن هنا قال إنجلز بحق « إن الدراسات الشاملة التى قام بها هيجل ، وتجميعه العقلى للعلوم الطبيعية ، هو عمل أعظم بكثير جداً من كل السخافات المادية مجتمعة . . »[١] . فمن الضلال إذن أن يقال فى عبارات واسعة فضفاضة إن الماركسية تأثرت بهيجل ، كما تأثرت بفويرباخ ، كما تأثرت بهذا الفيلسوف أو ذاك ، بل لقد بلغ التمييع للأثر الهيجلى حدا جعل بعض الكتاب يربط بين أفلاطون وهيجل من حيث إنهما معاً « جدليان » وهما معاً « مثاليان موضوعيان » ولا مانع من أن يلحق بهما ليبنتز « بمثاليته الموضوعية » فهم جميعاً قد سلموا بوجود أساس **روحى موضوعى** متميز عن الوعى البشرى ومستقل عنه[٢] . وهم جميعاً يمثلون « خلفية » تاريخية تأثرت بها الماركسية . صحيح أن الماركسية تأثرت

---

(١) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 273.

(٢) Fundamentals of Marxism — Leinism. p. 41.

بفويرباخ هذا أمر لا شك فيه ، لكن أثر فويرباخ لا يعادل ذرة من الأثر الهيجلى ، وإنا لنجد ماركس يعبر عن هذه الفكرة نفسها حين يعرض للمقارنة بين هيجل المثالى وفويرباخ المادى فيقول : « إن فويرباخ ليتضاءل إذا ما قورن بهيجل . . . »[١] وكل جدارة فويرباخ — فى رأيه — هو أنه فسر هيجل تفسيراً ماديا من وجهة نظر هيجل نفسه .

ثانياً — ماركس « يقلب » الجدل الهيجلى

التفسير الصحيح لهذه العبارة . .

٣٥٦ — بقى علينا بعد ذلك أن نناقش عبارات ماركس التى استندت إليها بعض هذه المحاولات حين راحت تزعم أن هناك جدلا ماركسياً غير الجدل الهيجلى المعروف .

ولعل أشهر عبارة قالها ماركس فى هذا الصدد تلك التى ساقها فى الطبعة الثانية من الجزء الأول من رأس المال حين قال : « إن منهجى الجدلى لا يختلف فى أساسه عن منهج هيجل فحسب ، بل هو مضاد له تماماً . . . فقد كان الجدل الهيجلى يقف على رأسه . . »[٢] فجعلنا الرأس إلى أعلى ، أو بتعبير أدق أقمناه على قدميه . . . »[٣] . تلك هى العبارة المشهورة التى ترددت آلاف المرات — ترديداً ببغاوياً فى الأعم الأغلب — حتى ليندر أن يخلو منها كتاب يرد فيه ذكر للجدل الماركسى ، بل لابد أن نطالعها فى فاتحة كل كتاب وكأنها بديهية لا يجوز الشك فيها ؛ فهى — مثلا — العبارة التى أردفها ستالين فى الحال بعد أن أصدر حكمه القاطع بأن « جدل ماركس وإنجلز ليس هو نفسه جدل هيجل » ، وهى أيضاً العبارة التى استنتج منها غيره أن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » الذى يخالف إلى حد كبير الجدل الهيجلى الذى كان يقف على رأسه .

---

(١) K. Marx : "The Poverty of Philosophy". p. 186.

(٢) K. Marx : "Capital". Vol. I. p. 19.

(٣) K. Marx & F. Engels : Selected Works. Vol. 2. p. 386.

٣٥٧ ــ والغريب أن نجد الكتاب الماركسيين يأخذون بهذه العبارة أخذ الواثق من صدق دعواه فهى واضحة بذاتها لا تحتاج إلى أدنى مناقشة ، مما يدل على أنهم يخلطون خلطاً واضحاً بين مثالية هيجل ومادية ماركس ــ وهما موضع المقارنة فى العبارة السابقة ــ من ناحية وبين المنهج الجدلى الهيجلى الذى استخدمه كل من الفيلسوفين من ناحية أخرى ، فتراهم يتصورون ــ خطأ ــ أنه ما دام التعارض واضحاً بهذا الشكل بين الهيجلية والماركسية من حيث المفهوم الفلسفى للعالم عند كل منهما ، فلابد أن يستتبع ذلك بالضرورة اختلافاً فى المنهج ، أى لابد أن يكون الجدل الماركسى بدوره عكس المنهج الهيجلى على طول الخط . دون أن يحاول أحدهم أن يقف لحظة واحدة ليسأل نفسه مثلا : كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة إذا ما أخذت بحرفيتها ــ وبين ما يسهبون فى شرحه وتحليله تحت عناوين « الجدل الماركسى » و « المقولات الماركسية » . . . إلخ . . ؟ .

والحق إن هذا الخلط لم يقتصر على الماركسيين ، وإنما تعداهم إلى غيرهم من النقاد الذين حملوا هذه العبارات أكثر مما تحتمل . يقول « سيدنى هوك » فى هذا المعنى : « إن استخدام ماركس للجدل ظل غامضاً عند معظم النقاد ، لأنهم لم يعرفوا السبيل الصحيح لفهمه ، فتلقفوا العبارات المجازية عن قلب المنهج الجدلى الهيجلى رأساً على عقب ، وأخذوا بحرفيتها . كما لو كان من الممكن جدا أن يدرس المنهج بالطريقة التى نتفحص بها ظهر بعير . . . »[1] . فنديره ذات اليمين تارة ، وذات اليسار تارة أخرى كما نشاء .

٣٥٨ ــ وحتى نتمكن من فهم المغزى الحقيقى لهذه العبارة وأمثالها ، يجب أن نضع فى اعتبارنا أربع ملاحظات هامة هى :

أولا : أن ماركس كان ماديًّا ، ومن ثم بدأ بداية تخالف تماماً البداية الهيجلية ، وتلك نقطة هامة وهى فى الحقيقة المصدر الأساسى للخلط وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل .

ثانياً : أن ماركس كان ملحداً بعنف ، ومن ثم فقد كان يحمل فى نفسه

---

(١) S. HOOK : "From Hegel To Marx." p. 60-61.

كراهية شديدة للاهوت ولكل ما هو فوق الحس ، وليس ذلك مما يعنينا فى حد ذاته ، لكن الذى يعنينا منه ، هو أنه ربط بين اللاهوت المسيحى والمثالية الهيجلية : « فرأى فى مذهب هيجل المثالى إله المسيحية الغربية . . »[١] . ويبدو أنه فهم — كما فهم غيره — وصف هيجل للمنطق بأنه يعرض لنا الله فى ماهيته الأزلية قبل أن يخلق الطبيعة والروح المتناهى — بمعناها الحرفى (ولقد سبق أن ذكرنا أن هيجل لم يكن يعنى ذلك قط فقرة رقم ٥ من هذا البحث) . ومن هنا فقد رأى ماركس أن جوهر فلسفة هيجل المثالية ليس شيئاً غير « العرض النظرى للعقيدة المسيحية . . . »[٢] . مع أن خيطاً أحمر من إلحاد بروميثيوس — على حد تعبير هوك — كان يسرى فى كل كتاباته الفلسفية ، حتى إنه اتخذ من عبارة اسخيلوس — التى ذكرها على لسان بروميثيوس — شعاراً للبحث الذى تقدم به لنيل الدكتوراه وهى : « . . فى كلمة واحدة — إنى أكره جميع الآلهة . . »[٣] . ولهذا كان ينفر بشدة حين يرد فى منطق هيجل ذكر المطلق أو « الله » أو غيرها من الأفكار التى تدخل أساساً ضمن مذهبه المثالى[٤]. ولقد عبر لينين عن هذا المعنى نفسه حين قال إن اللوحة التى يقدمها لنا منطق هيجل عن العالم تكون جليلة حقا ورائعة فعلا لو أننا أسقطنا منها « الله » و « المطلق »[٥] .

ثالثاً : أنه على الرغم من أن ماركس كان يسلم بأن الجدل الهيجلى هو الصورة الوحيدة لجميع أنواع الجدل ، إلا أنه كان يعيب على هيجل تطبيقه المثالى لهذا الجدل . بالإضافة إلى أنه كان يؤمن بأن حياة المنهج تكمن فى تطبيقه ، وفى هذا التطبيق وحده يمكن أن يكون له معنى ، وفيه أيضاً تظهر قيمته الحقيقية . ولهذا ذهب إنجلز إلى أنهم يفترقون عن هيجل بأنه فى الوقت الذى شرح فيه هيجل أفكاره فى كلمات فإنهم طبقوها بالتفصيل فى كل الميادين ، يقول فى هذا المعنى : « إن الفكرة الأساسية الكبرى التى ترى أن العالم يجب ألا ينظر إليه على أنه مجموعة من

---

(١) K. Marx : The Hol. Fam. p. (٢) Ibid. p. 18.

(٣) S. Hook : op. cit. p. 18.

(٤) قارن أيضاً تعليقات لينين المماثلة فى مذكراته الفلسفية وهو يلخص منطق هيجل « يا لهذا الإله التعس ، سرعان ما تتكدر أساريره حين يذكر الوجود الفعلى . ص ١٤٨ وقارن ص ٢٣٤ .

(٥) V. Lenin : Collected Works. Vol. 38. p. 147.

الأشياء الجاهزة وإنما على أنه مجموعة من العمليات ، قد تشربها الوعى بعمق لا سيما منذ عصر هيجل بحيث لا سبيل إلى إنكارها الآن . غير أن الاعتراف بهذه الفكرة الأساسية فى كلمات وتطبيقها على الواقع بالتفصيل ، وعلى كل ميدان من ميادين البحث ، هما أمران مختلفان أتم الاختلاف . . »[١].

رابعاً : إن هيجل كان يوحد بين المنهج الجدلى ومذهبه المثالى ويربط بينهما برباط وثيق وقد سبق أن ذكرنا قوله : « إن المنهج لا ينفصل عن موضوعه ، إنه المضمون فى ذاته وما يكمن فى هذا المضمون من جدل هو الذى يحركه . . » (فقرة ٦ من هذا البحث). والماركسية نفسها — كماسنشير بعد قليل — تساير هيجل فى ذلك فتوحد بين المنهج الجدلى والمذهب المادى ، وترى أنهما معاً يشكلان وحدة عضوية لا تنفصم . غير أنها قبل أن تتمكن من هذا القول ، كان عليها أولا أن تقوم بعملية أخرى هى فصل الجدل الهيجلى عن المذهب ، وهذا ما حاول ماركس أن يقوم به .

٣٥٩ — على ضوء هذه الملاحظات الأربعة نستطيع أن نفهم فى يسر عبارة ماركس السابقة وغيرها من العبارات المشابهة ، وأن نضعها وضعها الصحيح ، فلا يختلط علينا الأمر فنظن أن معارضة ماركس لمثالية هيجل تعنى أيضاً معارضة المنهج الماركسى للجدل الهيجلى .

إن نقطة الخلاف الرئيسية بين هيجل وماركس تكمن أساساً فى تصور كل منهما للكون أو بدقة أكثر فى تحديد كل منهما للعلاقة بين الفكر والوجود ، وأيهما يسبق الآخر منطقيًّا : هيجل يرى أن الفكر هو الشرط الأساسى وهو المبدأ الأول للكون ، وهو الماهية الخالصة للعالم الواقعى وبالتالى فلابد أن نبدأ من الفكر الخالص لنسير منه إلى الطبيعة كما فعل هو نفسه فى المذهب ، فى حين أن ماركس يرفض هذه النظرة المثالية ويرى أن الطبيعة هى الأساس الأول وهى الشرط المنطقى لوجود الفكر والحياة الروحية بأسرها[٢] . ونقطة الخلاف هذه لا تمس المنهج

---

(١) Selected Works. Vol. 2. p. 387-8.

(٢) الواقع أن أى إجابة عن السؤال الخاص بالعلاقة بين الفكر والوجود هى فى صميمها إجابة ميتافيزيقية أو هى — بلغة هيجلية — إجابة مثالية . ومن هنا قال هيجل بحق « إن كل فلسفة هى بالضرورة فلسفية مثالية . . » لأن المبدأ الأول الذى تقول به الفلسفة المادية وهو المادة، هو أيضاً =

لا من قريب ولا من بعيد . فأيًّا ما كانت نقطة البدء ، وأيًّا ما كان موضوع الفلسفة ، وأيًّا ما كان تصورهما الفلسفى عن العالم فهما معاً متفقان فى أن طريق السير الصحيح ليس شيئاً آخر غير الطريق الجدلى المرصوف بالمقولات الهيجلية . فماركس كان يؤمن مع هيجل بأن المنهج الوحيد الذى ينبغى على الفلسفة أن تأخذ به هو المنهج الجدلى الهيجلى . كما كان يتفق معه تماماً فى رفض المنهج الميتافيزيقى : منهج الاستقرار والسكون ، والهوية المجردة ، منهج النظرة المحدودة الضيقة ، وحيدة الجانب فقيرة المضمون ، بل كان يسلم بكل ما قاله هيجل عن المنهج الميتافيزيقى [1].

المنهج الذى يعارضه كل من هيجل وماركس — إذن — هو المنهج الميتافيزيقى ، أما المنهج الجدلى الهيجلى فهما متفقان على أنه المنهج الوحيد الذى يكشف عن الحقيقة ، والسبيل الوحيد أمام الفلسفة لكى تتمكن من دراسة العالم دراسة دقيقة وأن تصل إلى المعرفة اليقينية . لكنهما يختلفان بعد ذلك فى « النظرة الفلسفية » إلى الكون ، أو فى المفهوم الفلسفى عن العالم ، وبديهى أن يؤدى ذلك إلى اختلاف فى اتجاه عبور الطريق . هيجل يبدأ من الفكر وماركس يبدأ من المادة ، لكن الطريق هو هو لم يتغير . ولهذا فإن انفصال ماركس عن الهيجلية لم يكن نتيجة لاختلاف فى المنهج ، وإنما جاء نتيجة لاختلاف وجهة نظرها عن العالم . يقول إنجلز مفسراً

= الحقيقة الكامنة وراء المظاهر العابرة الزائلة التى نسميها بالوقائع المباشرة . ولقد اقترب « لينين » نفسه من هذا التفسير حين قال إن المكتشفات العلمية الأخيرة تزيل الحدود التى نعرفها عن « المادة » ، فقد كان آخر ما عرفناه عنها أنها « ذرة » ، وأصبح ما نعرفه عنها اليوم أنها « إليكترون » وغداً سوف يزول ذلك أيضاً (إيفانسييف ص ٥٦) . فما الذى يبقى إذن بعد زوال هذه الوقائع التى نعرفها . . ؟ يبقى التصور الفلسفى الذى يكمن خلف الأشياء الجزئية ، ولهذا فلم يخطئ لينين حين قال المادة « مقولة فلسفية ، تدل على حقيقة موضوعية . . » نفس المرجع السابق ص ٥٤ ويمكن أن نقارن تعريف المادة الذى يسوقه لينين بقول هيجل « المادة ليست إلا فكرة . . . » قارن فقرة ١٨٩ من هذا البحث ويمكن كذلك أن نقارن تعريف الماركسية للمادة بأنها « الحقيقة الموضوعية الموجودة فى الخارج ، والمستقلة عن وعى الإنسان وإرادته » . بتعريف الفكرة الشاملة عند هيجل فهى أيضاً الحقيقة الموجودة فى الخارج وجوداً موضوعياً والمستقلة عن وعى الإنسان وإرادته .

(١) من المفارقات الغريبة أن تذهب الماركسية اليوم إلى القول بأن هذا المنهج الميتافيزيقى بكل مواصفاته التى ذكرها هيجل — هو منهج الفلسفة المثالية ، وهو المنهج الوحيد الذى يناسب تماماً جوهر تلك الفلسفة « الضيقة الأفق ، وحيدة الجانب . . . إلخ . إلخ » . وأن المنهج الجدلى هو وحده منهج الفلسفة المادية .

سبب هذا الانفصال : « لقد كان انفصالنا عن الفلسفة الهيجلية يرجع أساساً إلى **العودة إلى وجهة النظر المادية** . . أعنى التحرر من التصور المثالى للعالم . . »[١] .

وهذا التصور المثالى للعالم هو الذى ظلت الماركسية — ولا تزال — تحاربه ، بنفس القوة التى تدافع بها عن الجدل الهيجلى ، يقول إنجلز : « نحن لا ندافع قط عن وجهة النظر الهيجلية التى تتخذ من الروح أو العقل أو الفكرة نقطة بدء ، وتعتبر العالم الواقعى نسخة من هذه الفكرة . ولقد سبقنا فويرباخ ورفضها . . . لكن بعد ذلك كله **يبقى الجدل الهيجلى** . . »[٢]. بل إن جدارة ماركس ترجع — فيما يقول إنجلز — إلى أنه كان أول من استطاع أن يبرز المنهج الجدلى الذى « طواه النسيان » ، ويبين صلته بالجدل الهيجلى ، ويطبقه فى كتابه رأس المال على وقائع علم تجريبى هو علم الاقتصاد السياسى .

٣٦٠ — ومعنى ذلك أن ما يجعل الماركسية « تضاد الهيجلية تماماً » هو ماديتها وليس منهجها . ولقد شرح لينين عبارة ماركس السابقة فقال « كتب ماركس مقدمته للطبعة الثانية من المجلد الأول من رأس المال ، وفيها يظهر بوضوح قاطع معارضة **مذهبه المادى** ، **للمذهب المثالى** عند هيجل ، وهو الذى يعد من أعظم المذاهب المثالية تطويراً واتساقاً . . . »[٣] وهذا واضح تماماً حتى من عبارة ماركس السابقة التى تبدو فى ظاهرها مقابلة بين المنهجين لكنها فى الحقيقة تقابل بين فلسفتين ، مادية الماركسية ومثالية الهيجلية . يقول ماركس فى نفس العبارة مفسراً سبب التعارض « . . . إن حركة الفكر التى يجعلها هيجل ذاتاً مستقلة ، ويسميها بالفكرة — هى عنده صانعة الواقع ، وليس هذا الواقع إلا الصورة الخارجية الظاهرية للفكر ؛ أما عندى فحركة الفكر ليست — على العكس — إلا انعكاساً للواقع . . »[٤]. وليس فى هذا حديث عن المنهج وإنما مقابلة بين التصور الفلسفى للعلاقة بين الفكر والوجود عند كل من الفلسفة المثالية والفلسفة المادية . هيجل يجعل الفكر أساساً أولياً عليه يعتمد الوجود بأسره ، أما ماركس فيطالب بأن نقلب

---

(١) ك . ماركس ، ف . إنجلز : المؤلفات المختارة . المجلد الثانى ص ٣٨٦ .

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 64-5 & Anti-Duhring. p. 457-8 ..

(٣) V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 352.

(٤) K. Marx : Capital : Vol. I. p. 19.

الوضع بحيث يكون الأساس هو مادة الواقع الصلبة . ولقد أوضح إنجلز نقطة التعارض هذه بين الفلسفتين بإسهاب وتفصيل فى مقاله عن « فويرباخ » حين تحدث عن نشأة الماركسية «كتيار خصب» خرج من انحلال المدرسة الهيجلية ، وكيف أنهم شقوا طريقاً مخالفاً للهيجلية فى النظر إلى العالم : « ووطدنا العزم على التضحية بكل مثالى لا يتفق معاً فى النظر إلى الواقع كما هو لا بشكل خيالى . . »[١]. وهذا هو أساس الخلاف مع الهيجلية « . . . غير أن هيجل لم يستبعد تماماً بل على العكس لقد اتخذنا نقطة البدء من الجانب الثورى فى فلسفته وأعنى به **منهجه الجدلى . .** » .

فمنهج هذا التيار المادى الجديد الذى ارتبط باسم ماركس هو إذن الجانب الثورى فى فلسفة هيجل أو منهجه الجدلى . صحيح أن إنجلز يذكر فى نفس السياق أن المنهج الجدلى فى صورته الهيجلية لم يكن يصلح الاستعمال ، لكن يجب ألا تخدعنا هذه الكلمات فنظن أنها تعنى أنهم استعاضوا عن الجدل الهيجلى بمنهج جدلى جديد . إذ المقصود بالصورة الهيجلية هنا هو التطبيق الهيجلى المثالى لهذا المنهج وفقاً لنقطة البدء المثالية عند هيجل يقول إنجلز موضحاً ذلك « . . فالتطور الجدلى (عند هيجل) الذى يظهر فى الطبيعة والتاريخ ، هو صورة من الحركة الذاتية من الفكرة الشاملة ، وهى الفكرة الخالدة التى لا يعلم أحد مكانها ، ولكنها — على كل حال — مستقلة عن العقل البشرى . . . **وهذه الأيديولوجية المعكوسة هى التى يجب استبعادها . . .** وبهذه الطريقة عاد الجانب الثورى فى فلسفة هيجل إلى الظهور من جديد ، متحرراً فى نفس الوقت من الإطار المثالى الذى منع هيجل من تطبيق منهجه تطبيقاً متسقاً . . . »[٢] .

وهكذا يتضح لنا من عبارة إنجلز هذه أن ما تعارضه الماركسية هو « الأيديولوجية المعكوسة» أى المثالية الهيجلية التى تضع الفكر قبل الوجود ، وتجعله المبتدأ وكل ما فى الكون حديث عنه وخبر . أما الجدل الهيجلى أو الجانب الثورى فى فلسفته فهو ما أخذته الماركسية دون أن « تقلبه » أو « تعكسه » أو « تخالفه » . وما أشبه عبارة ماركس السابقة عن « قلب المنهج الهيجلى » يقول إنجلز : « إن مذهب هيجل

---

(١) Selected Works. Vol. 2. p. 386.

(٢) Ibid.

هو نفسه المذهب المادى فى وضع مقلوب . . »[١] . فالحديث فى كل من العبارتين ينصب على المذهب والتصور الفلسفى للعالم لا على المنهج ، لأن منهج الفلسفتين واحد « هو الجانب الثورى عند هيجل ، أو الجدل الهيجلى » .

٣٦١ — من الطبيعى بعد ما تقدم أن نلتقى بهذا السؤال : إن صح وكان ماركس يعارض فى عبارته السابقة المثالية الهيجلية دون منهجها ، فلم لم يذكر ذلك صراحة . . . ؟ ولماذا قابل إذن بين منهجه وبين منهج هيجل . . ؟

الحق أن ماركس فى كل ما كتب كان ينقد الجانب المثالى من فلسفة هيجل فى صراحة ووضوح وكثيراً ما كان يسمى المذهب الهيجلى « بالإطار المثالى » أو « الغلاف الصوفى » ويرى أنه لابد من أن ننزع هذا الإطار حتى تظهر « النواة العقلية » واضحة وهو يقصد بها المنطق، بل إن ما كان ماركس يجاهد فى سبيله هو أن يتمكن من فصل المنطق الهيجلى عن بقية المذهب لكى يطبقه بعد ذلك تطبيقاً جديداً على علم الاقتصاد وتاريخ المجتمع البشرى . وهذا ما قاله إنجلز وهو يصف الدور الذى قاما به معاً دون بقية الهيجليين اليساريين : « إننا كلينا — ماركس وأنا — كنا وحدنا تقريباً اللذين عملا لإنقاذ الجدل الواعى من المثالية الألمانية (أى الهيجلية) وذلك بإدخاله فى المفهوم المادى عن الطبيعة والتاريخ . . »[٢]. وهذا واضح كذلك فى كل ما وجهه إنجلز من نقد إلى هيجل حيث كان ينصب نقده أساساً على مثالية هيجل أو ما غلف جدله من صوفية ، ويرى أننا يجب أن ننزع عنه هذه الصوفية ليتضح الجدل الهيجلى فى قوته الحقيقية . يقول مثلا : « إن الكون عنده لابد أن يتطابق — طوعاً أو كرهاً — مع نسق الفكر الذى هو نفسه ليس إلا نتاجاً لفترة محددة من تطور الفكر البشرى . ولو أننا قلبنا الوضع لصار كل شىء بسيطاً ، ولأصبحت القوانين الجدلية التى وصلت إلى أقصى درجة من الصوفية فى **فلسفة هيجل المثالية** — واضحة وضوح النهار . . »[٣] :

---

(١) Selected Works. Vol. 2. p. 372 & Lenin : Coll. Works. Vol. 38. p. 234.

(٢) F. Engels : "Anti-Duhring" p. 16.

(٣) F. Engels : Oialectics of Nature". p. 83-4.

٣٦٢ – أما لماذا قابل ماركس بين منهجه ومنهج هيجل فى عبارته المشورة فالسبب يرجع أساساً إلى أنه – كغيره من الهيجليين – كان يعرف تماماً أن هيجل يربط بين المنهج والمذهب برباط لا ينفصم بحيث يؤلفان معاً وحدة عضوية واحدة ، ومن هنا فقد كان ماركس فى أحوال قليلة يتحدث عن منهج هيجل المقلوب وهو يقصد مذهبه ، على اعتبار أن المنهج والمذهب عنده لا ينفصلان . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الماركسية نفسها سايرت الطريقة الهيجلية فى الربط بين المنهج والمذهب ، فذهبت إلى أن المنهج الجدلى وحده يصبح بلا معنى ، والمذهب المادى وحده يتحول إلى مادية ميكانيكية « مبتذلة » . والقول بأن ماركس كان أحياناً يتحدث عن منهج هيجل وهو يعنى مذهبه يبرره سببان : الأول : توضيح ماركس نفسه فى الشطر الثانى من عبارته السالفة . والثانى قول ماركس : « إن الميتافيزيقا ، بله الفلسفة كلها يمكن أن يلخصها المنهج كما يقول هيجل . . . » [١].

وعلى ذلك فإذا كان ماركس يذهب أحياناً إلى أنه قلب المنهج الهيجلى أو أقامه على قدميه فيجب أن نفهم إن ما كان يعنيه دائماً بمثل هذه العبارات هو أنه قلب « المذهب المثالى » أو « عكس التصور للمثالى للعالم » . أو بعبارة أخرى أقامه على قدميه حين جعل من المادة الأساس الصلب ، ومن الفكر تابعاً لها . ولقد كتب ماركس فى هذا المعنى إلى « كوجلمان » فى ٦ مارس سنة ١٨٦٨ يرد على نقد « دوهونج » لكتابة رأس المال فقال : « إن دوهرنج يعرف تماماً أن منهجى ليس هو المنهج الهيجلى طالما أنى **مادى** وهيجل **مثالى** . إن الجدل الهيجلى هو الصورة الأساسية لجميع ألوان الجدل ، ولكن بعد أن ننزع عنه غلافه المثالى ، وهذا بالضبط ما يميز منهجى عن منهجه . . . »[٢]

---

(١) K. Marx : "The Poverty of Philosophy". p. 116.

(٢) Selected Correspondence, p. 100

ثالثاً — قوانين « الجدل الماركسى » ومقولاته تؤيد هذا التفسير

٣٦٣ — ذلك هو التفسير الصحيح لعبارة ماركس عن : « قلب الجدل الهيجلى » وهو تفسير يصدق كذلك على غيرها من العبارات المماثلة : فكل نقد وجهته الماركسية إلى الهيجلية ينصب أساساً على الجانب المثالى دون المنهج ، وكل خلاف بينهما يرتد فى نهاية تحليله إلى نقطة البدء . تلك مقدمة نخلص منها إلى النتيجة التالية — بذلك تكون الماركسية قد نقلت الجدل الهيجلى كما هو بنصه دون أن تقلبه ، ودون أن تضيف إليه إضافة واحدة ، وبناء عليه لا يجوز أن يقال إن هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » الذى يقابل « الجدل الهيجلى » . وإنما هناك الاستخدام الماركسى « للجدل الهيجلى » أو التطبيق المادى « للجدل الهيجلى » . وبعبارة أخرى ليست هناك « قوانين » للجدل الماركسى غير قوانين الجدل الهيجلى ، وليست هناك « مقولات للجدل الماركسى » جديدة تختلف عن المقولات التى عرضها هيجل فى المنطق . وما لم نسلم بذلك فسوف نتساءل : ما هى تلك القوانين الجديدة التى تميز الجدل الماركسى عن جدل هيجل ؟ وما هى تلك المقولات التى أتت بها الماركسية ولم يذكرها هيجل فى منطقه . . ؟ باختصار ما هى تلك الإضافات الجديدة التى أضافتها الماركسية للمنهج الجدلى الهيجلى . . ؟ .

قد يقال إنها استخدمته استخداماً جديداً مخالفاً للاستخدام الهيجلى ، وقد يقال أيضاً إن الغاية والنتيجة من المنهج الهيجلى اختلفت فى الماركسية عنها فى الهيجلية ، وذلك كله صحيح لا نشك فيه لكنه لا ينصب على المنهج ذاته فقد استخدم سلم منزلى فى الصعود إلى الطابق العاشر ، بينما يستخدمه غيرى فى الهبوط إلى الطابق الأول ، لكن ذلك لا يعنى أن السلم قد اختلف فى الحالتين . وقد يستخدم الطبيب نفس السلم فى علاج مريض بينما يستخدمه اللصوص فى السرقة ، هنا كذلك اختلفت الغاية لكن الوسيلة ظلت كما هى — يقول ماركس « لقد عارضنا الفلسفة الألمانية التى تهبط من السماء إلى الأرض وارتفعنا نحن من الأرض إلى

السماء » . لكن طريق الصعود والهبوط كان دائماً هو هو لم يتغير فى الحالتين أما ما تغير حقا فهو « اتجاه » العبور فحسب .

ولست أدرى كيف يمكن أن يكون بين الماركسية والهيجلية خلاف فى المنهج ، فى الوقت الذى تسلم فيه مع هيجل بأن الطريق إلى الشرق هو نفسه الطريق إلى الغرب . . ؟[١].

٣٦٤ – ولكى يتضح هذا الذى نقوله لا بد أن نعرض فى عجالة سريعة لما يسمى « بالقوانين الأساسية للجدل الماركسى » ثم نعقب عليها بعرض سريع كذلك « للمقولات الماركسية » .

١ – القانون الأول : التغير من الكم إلى الكيف والعكس :

التغير الذى يحدث فى العالم هو انتقال من التغيرات الكمية إلى تغييرات كيفية جذرية والعكس – وهذا الانتقال هو القانون الجدلى الشامل الذى يعمل فى جميع ميادين الطبيعة والمجتمع والفكر ، ففى جميع هذه المجالات يحل الجديد محل القديم .

وانتقال الشىء من حالة كيفية معينة إلى حالة كيفية أخرى نتيجة للتغيرات الكمية المتدرجة هو **طفرة** فى مجال التطور ، والطفرة هى تحطيم لتدرج التغير الكمى للشىء ، أو هى الانتقال إلى كيف جديد ، أو التحول الفجائى والتغير الجذرى فى مجرى التطور ، ولقد كان ظهور الإنسان نفسه طفرة ، أعنى نقطة تحول جذرية فى تطور العالم العضوى . والطفرات أو الانتقالات من كيف قديم إلى كيف جديد سريعة نسبيًّا إذا ما قورنت بالفترات السابقة التى كانت تتم فيها التغيرات الكمية المتدرجة . وهذه السرعة تختلف باختلاف طبيعة الشىء والظروف التى تحدث فيها الطفرة . وهذه الطفرة هى التى نسميها بالثورة فى التغيرات الاجتماعية فالثورة أو التغير الكيفى هى نتاج ضرورى لتطور التغيرات الكمية[٢] . .

---

(١) وهى نفس الفكرة التى عبر عنها هيراقليطس قديماً فى قوله : « الطريق إلى أعلى وإلى أسفل واحد ، وهو نفس الطريق . . » شذر ٦٩ وفقاً لترقيم بيرنت .

(٢) Fundamentals of Marxism Leninism. p. 70-72 & Afanasyev op. cit. p. 105-110. & O. Yakhot : op. cit. p. 81-90.

هذا هو باختصار شديد القانون الأول من القوانين الأساسية للجدل الماركسى ، وهو منقول بنصه عن منطق هيجل ، ولقد سبق أن عرضنا له من قبل بالتفصيل قارن (٢٠٢ — ٢٠٤) . ويمكن الآن أن نتساءل كيف وبأى معنى استطاع ماركس أن يقلب مقولة الكمية النوعية عند هيجل وهى المقولة التى جعلتها الماركسية أول قانون من قوانين الجدل . . . ؟ إن مضمون هذه المقولة كما عرضه هيجل هو أن التغيرات الكمية إذا ما وصلت إلى حد معين انقلبت إلى تغيرات كيفية والعكس . . . فبأى معنى استطاعت الماركسية أن « تقلب » هذا القانون رأساً على عقب أو عقباً على رأس كما يقولون . . ؟ الحق أن ماركس لم يزعم ذلك قط ، لكنه على العكس من ذلك كان فى تحليله لرأس المال ولمعدل وفائض القيمة لا يشير إلى هذا القانون إلا على أنه القانون الهيجلى الذى كشف عنه هيجل فيقول مثلا — « هنا كما هى الحال فى العلوم الطبيعية يصدق القانون الذى كشفه هيجل فى كتابه « المنطق » وهو أنه عند بلوغ درجة معينة تتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات فى الكيف »[1] . بل ويشرح فى حاشية لهذه العبارة كيف أن علم الكيمياء نفسه يؤيد هذا القانون « إن نظرية الذرة فى علم الكيمياء الحديث والتى صاغها لأول مرة لوران وجرهاردت بصورة علمية لا ترتكز إلا على هذا القانون » وقد أضاف إنجلز لهذه الحاشية مثلا توضيحاً من علم الكيمياء .

٢ — القانون الثانى : صراع الأضداد وتداخلها .

٣٦٥ — إذا كان العالم بما فيه من ظواهر فى حركة مستمرة وتغير لا ينقطع فإن سبب هذه الحركة هو التناقض الكامن فى الأشياء . ومعنى ذلك أن العلة الأساسية لتطور الأشياء لا توجد خارجها ، وإنما تكمن فى جوف هذه الأشياء ذاتها فالطبيعة المتناقضة هى خاصية ماهوية للأشياء . وكل ظاهرة تحوى فى جوفها متناقضات متصارعة ، وصراع الأضداد هذا هو الذى يولد الحركة ويبعث التطور . ولا يمكن أن نتصور أى شكل من أشكال الحركة بدون أضداده ، فحتى الحركة الآلية البسيطة لا تتم إلا لوجود هذه الأضداد : فعل ورد فعل ، جذب ودفع ، قوة طرد مركزية وقوة جذب مركزية ، بل إن كل ذرة تتألف من ضدين من نواة مشحونة

(١) K. Marx : "Capital". p. 309.

شحنة موجبة وغلاف إلكتروني مشحون شحنة سالبة . . . . إلخ. بل هناك جوانب متناقضة ذاتياً داخل عملية المعرفة نفسها، فالإنسان يستخدم مناهج متضادة ومرتبطة فى دراسته للأشياء كالاستقراء والاستنباط والتحليل والتركيب . . . إلخ[١]. ومن المهم أن نعرف أن هذه الأضداد لا توجد معزولة بعضها عن بعض بل هى تكمن داخل الظاهرة الواحدة وتبرز فى وحدة عضوية ولا معنى لها إذا انفصل كل منها عن الآخر بل إن عملية الفصل هذه نفسها عملية مستحيلة إلا فى الخيال فحسب « فمن المستحيل أن تحصل على جانب واحد من التناقض بدون الآخر ، استحالة أن تحتفظ فى يدك بالتفاحة كلها بعد أن أكلت نصفها . . . [٢] .

والماركسية ترى كما يقول ستالين « أن أشياء الطبيعة وظواهرها تحوى تناقضات داخلية لأن لها جانبين **جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً** . . . ونضال هذين الجانبين هو المضمون الداخلى للحركة والتطور ، وهو المضمون الداخلى لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية . . . »[٣].

هذا هو باختصار القانون الثانى من « القوانين الأساسية للجدل الماركسى » وليس فيه جديد أضافته الماركسية إلى فكرة صراع الأضداد عند هيجل ذلك الصراع الذى كان يطلق عليه اسم « مبدأ السلب » ويصفه بأنه الروح التى تبعث الحياة فى العالم المادى والروحى على السواء . وهو أيضاً صراع « باطنى » وداخلى ومجدد وهو مصدر الحركة والتطور ولنقارن مثلا فقرة ١٢١ من هذا البحث .

٣ ــ القانون الثالث : نفى النفى

٣٦٦ ــ يمكن القول بأن سير التطور كله عبارة عن سلسلة من نفى النفى كل مرحلة تنفى سابقتها ثم تنفيها هى نفسها مرحلة ثالثة وهكذا . غير أن النفى هنا لا يعنى الفناء ، وإنما كل مرحلة « تنفى وتحتفظ » فى وقت واحد بالمرحلة السابقة فالنفى الجدلى هو نفى واحتفاظ معا هدم وتطور أبعد : ولا يكون النفى جدلياً إلا إذا

---

(١) V. Afanasyev. : "Marxist Philosophy". p. 93.

(٢) Selected Works. Vol. 2. p. 226.

(٣) J. Stalin : op. cit. p. 9.

كان مصدراً للتطور أى إذا احتفظ بالعناصر الأساسية فى المراحل السابقة ، وهذه العملية تحدث فى جميع المجالات فى الطبيعة والمجتمع والتاريخ وتاريخ الفلسفة إلخ. .

إن نفى النفى يوجد بالفعل فى كل من مملكتى النبات والحيوان . بالإضافة إلى أن علم الجيولوجيا كله عبارة عن سلسلة من نفى النفى . والرياضة لا تفلت من هذا القانون خذ مثلا « ا » فلو أننا سلبناها لكان عندنا (— ا) ولو أننا عدنا من جديد ونفينا هذا النفى نفسه بأن ضربنا — ا × ا لكان عندنا : ا^{2} أى العدد الأصلى الموجب ولكن فى درجة أعلى . ويمكن أن نأخذ مثلا آخر من التاريخ ، فقد بدأت الحضارة بالملكية العامة غير أن هذه الملكية العامة للأرض التى كانت شائعة فى العصور البدائية أصبحت فى المراحل العليا من التطور الزراعى عائقاً للإنتاج ، ولهذه ألغيت أو سلبت وتحولت بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من الحلقات الوسطى إلى ملكية خاصة . ولكن حين تطورت الزراعة من جديد إلى مرحلة أعلى أصبحت الملكية الخاصة بدورها عائقاً للإنتاج وظهرت الحاجة إلى إلغائها أو سلبها ، وكان لابد من أن تعود الملكية العامة لا فى صورتها القديمة ، بل فى إطار جديد بحيث لا تصبح عائقاً للإنتاج ، وإنما متحررة من جميع القيود بحيث تتمكن من استغلال المكتشفات الحديثة .

مثلا آخر من الفلسفة : كانت الفلسفة القديمة مادية لكنها كانت مادية بدائية ساذجة ، ولهذا لم تستطع أن تفسر العلاقة بين العقل والمادة مع أن مثل هذا التفسير ضرورى جداً ، ولقد أدى ذلك إلى القول بسيطرة الروح على الجسد ثم التركيز على خلود الروح ومعنى ذلك أن المادية القديمة قد نفتها المثالية . لكن فى تطور الفلسفة عادت المادية من جديد إلى الظهور ونفت المثالية وتلك هى المادية الحديثة ؛ وهى نفى للنفى القديم ولكنها ليست مجرد إعادة للمادية القديمة لكنها تضيف إلى الأساس الدائم للمادية القديمة كل تراث البشرية الفكرى الذى ظهر فى ألفين من السنين نتيجة لتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية ؛ فالفلسفة الآن عبارة عن إلغاء واحتفاظ فى نفس الوقت . هذا هو القانون الثالث والأخير من القوانين الأساسية للجدل الماركسى وليس فيه جديد على فكرة النفى عند هيجل وقد سبق أن عرضنا لها فى الفقرة رقم ١٤١ من هذا البحث ، والواقع أن إنجلز وهو يضرب الأمثلة السابقة

فى كتابة ضد دوهرنج . كان يسمى هذا القانون دائماً باسم «بقانون نفى النفى الهيجلى »[١] .

٣٦٧ – تلك هى القوانين الجدلية الثلاثة التى لخص فيها إنجلز الجدل الهيجلى . وهى القوانين التى تتردد فى كل الكتب الماركسية على أنها القوانين الأساسية للجدل الماركسى فكيف يقال إذن إنها تعارض تماماً الجدل الهيجلى . . . ؟

قد يقال فى معرض الإجابة على هذا السؤال ما يلى :

أولا : صحيح أن هذه الأفكار كلها هيجلية لكنها ظلت فى منطق هيجل مجرد مقولات منطقية ولم تتخذ شكل القوانين .

ثانياً : إن هيجل استخدم مقولاته هذه استخداماً منطقياً خالصاً فجعل التطور تطوراً للعقل أو الفكر أو الروح ، ومن هنا كان صراع الأضداد عنده هو تمزق للفكر نفسه وكانت عملية نفى النفى تحدث فى جوف الفكر . وقل مثل ذلك فى الانتقال من الكم إلى الكيف ، أما الماركسية فتحدثت عن تراكم رأس المال الذى يتجمع حتى يؤدى إلى انقلاب المجتمع الرأسمالى كله إلى مجتمع جديد كما شرحت صراع الطبقات وتناقضها ، وأبرزت نفى المراحل التاريخية بعضها لبعض إلخ . . .

وجوابنا على ذلك هو كما يلى :

أما أن هذه الأفكار ظلت عند هيجل مقولات ولم يطلق عليها اسم « القوانين الأساسية للجدل » فذلك راجع إلى أنه كان يحلل الجدل نفسه فى المنطق ولم يكن يضع له قوانين . وبمعنى آخر لو أن الماركسية حاولت أن تدرس العلاقة بين هذه القوانين بعضها وبعض لتقف على ما بينها من صلة ، فسوف تجد نفسها مضطرة إلى جمعها فى سلسلة واحدة كما فعل هيجل بالضبط . وتلك هى العملية التى رفض « إنجلز » أن يخوض فيها فى جدل الطبيعة[٢] . . .

---

(١) F. Engels : "Anti-Duhring". p. 187.

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature." p. 84.

ومن ناحية أخرى فإن القانون عند الماركسية هو الطبيعة الموضوعية العامة المشتركة بين الظواهر « فالصورة الشاملة فى الطبيعة هى ما نسميه بالقانون »[١].

أى أن القانون هو الماهية الموضوعية الأساسية التى تعبر عن الرابطة الضرورية بين الظواهر وذلك هو تعريف المقولة عند هيجل ، وإذا كان القانون الجدلى هو التعبير عن الصلة الموضوعية العامة بين القوانين الجزئية ، فإنه بالتالى التعبير الموضوعى عن الصلة بين المقولات . فالقانون الأول مثلا ليس إلا تعبيراً عن الصلة بين مقولتى الكم والكيف أى أن الماركسية هنا تقتطع شريحة من الجدل الهيجلى لتطاق عليها اسم القانون . ولهذا قال قائل منهم بحق « إنه بدون معرفة المقولات يستحيل فهم قوانين الجدل . . . »[٢] . والماركسية — مثلا ثانياً — فى قانون صراع الأضداد : تكشف عن المعنى الحقيقى للمقولات المتناقضة : كالصورة والمضمون ، والضرورة والصدفة ، والإمكان والواقع . . . إلخ . ومن ناحية ثالثة فليس هناك فارق كبير بين أن يقول هيجل إن انتقال الكم إلى الكيف هو مقولة الكمية النوعية ، وأن تقول الماركسيين إنه « قانون » تحول الكم إلى الكيف . فاختلاف التسمية ليست له أهمية خاصة طالما أن المضمون واحد فى الحالتين .

وفضلا عن ذلك كله فيبدو أن التسمية الهيجلية هى الأقرب إلى الدقة والصواب . ذلك لأن الماركسية « تقرر » وجود قانون دون أن تبين لنا مصدره اللهم إلا كتب هيجل . أما هيجل فهو « يستنبط » مقولة الكمية النوعية من المقولات التى سبقتها ، وبغض النظر عن نجاحه أو فشله فى هذا الاستنباط ، فإنه لا يقرر « واقعة » أو « حقيقة » تقريراً تعسفياً بلا تبرير غير أنها منقولة عن كتب السابقين .

٣٦٨ — أما أن المقولات كانت منطقية عند هيجل ، فهذا أمر طبيعى طالما أنه فى المنطق يعرض الصورة العقلية الخالصة للجدل ، بغض النظر عن تطبيقه المثالى لهذه الصورة على المذهب . ومن ناحية أخرى فيجب ألا يغيب عن ذهننا ما سبق أن قلناه مراراً من أن اختلاف استخدام هيجل للجدل عن استخدام الماركسيين له يرجع أساساً إلى اختلاف المذهبين . ومن ناحية ثالثة فإنه لمن الخطأ

---

(١) Ibid. p. 310.

(٢) V. Afanasyev : "Marxist Philosophy". p. 124-5.

بمكان أن نقول إن هيجل قد اعتبر الصراع بين الأضداد صراعاً فكرياً فحسب[١]. لأن أى إنسان له أدنى دراية بهيجل يعلم — كما يقول إنجلز — « إنه استطاع فى بضع مئات من الفقرات أن يقدم لنا أمثلة أخاذة للغاية للقوانين الجدلية من الطبيعة والتاريخ . . [٢] » .

والحق أن هيجل فى عرضه العقلى الخالص للمقولات الجدلية فى المنطق ، لم يفترض لحظة واحدة إن هذا العرض لمنطق التطور يتصل بالأمور « الروحية وحدها » أو « المسائل الغيبية » كما يحلو لبعض الماركسيين تسميتها لكنه كان يشير ويركز باستمرار على الطابع الموضوعى للمقولات ، ويشير إلى أن هذا التطور العقلى الذى يعرضه فى المنطق هو صلب الواقع وجوهر الوجود ، وماهية العالم . ولقد سبق أن ذكرنا فى عرضنا لخصائص المقولة الهيجلية أن المقولات عند هيجل هى العمود الفقرى للعالم (فقرة رقم ١٢٨ — ١٣٠) . فليست هذه المقولات مجرد ماهيات خالصة ، أو أفكار مجردة ، وإلا لتعارض ذلك مع الأفكار الأساسية فى الجدل الهيجلى نفسه كالجمع بين الهوية والاختلاف ، والذاتى والموضوعى ، والمجرد والعينى . . . إلخ . فهيجل يرفض الثنائية ومن هنا فهو لا يفصل بين المقولات وعالم الواقع بحيث يضع المقولات فى عالم آخر فوق السحاب ، يفصلها عن أشياء العالم هوة سحيقة ، أنها ليست مثلا أفلاطونية تحتل عالماً علوياً خاصاً واكنها : أمامنا مباشرة ، وفى كل لحظة ، وعلى شفاهنا دائماً وهى باختصار « قلب الأشياء ومركزها » كما سبق أن ذكرنا .

٣٦٩ — ومعنى ذلك أنه إذا كانت الماركسية قد شرحت قانون الأضداد بأمثلة عينية سواء من ميدان العلوم الطبيعية أو ميدان العلوم الاجتماعية ، فإن هيجل لم يتحدث عن أضداد الفكر فحسب ، بل شرح هذه الفكرة بأمثلة عينية بالغة

---

(١) من الأخطاء الفاحشة أن يقال مثلا : « لقد تقبل ماركس فكرة التغير الهيجلية ، من ناحية أنها نتاج تصارع الأضداد ، إلا أنه رفض ما تقول به من اتخاذ الصراع سبيله فى ذهن الإنسان وحده . . » الأستاذ/ فؤاد شبل فى تحليله لرأس المال فى العدد الأول من المجلد الخامس من « تراث الإنسانية ص ٤ . وهذا ما لم يقل به هيجل على الإطلاق ؛ بل تلك هى نقطة الضعف التى كان يأخذها على جدل زينون الايلى وسقراط وغيرهما من الجدليين القدامى . قارن مثلا فقرة رقم ٣٦ و ٤٨ من هذا البحث .

(٢) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٨٤ .

العمق . ولم تقتصر هذه الأمثلة على الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة فحسب ، بل امتدت إلى العلاقات الاجتماعية نفسها وهذا واضح فى مؤلفاته المختلفة ، فهو فى ظاهريات الروح مثلا يحلل العلاقة بين العبد والسيد ويذهب إلى أن العبد بفضل عمله ونشاطه يصل إلى الاستقلال الذاتى ، ولا يصبح موضوعاً لاستغلال الآخرين ، وإنما يصبح شخصية مستقلة تحددها « أفعاله وإرادته » ، فى حين ينقلب السيد عبداً تابعاً لمولاه . وهذا التحليل هو الذى وقفت الماركسية وغيرها من النظم الاشتراكية الأخرى تتأمله طويلا كما يقول جان بول سارتر ، وفندلى وغيرهما[1] .

ولقد سبق أن رأيناه يضرب كثيراً من الأمثلة التجريبية للاعتماد المتبادل بين الكيف والكم وغيرهما من المقولات . فدستور الدولة وقوانينها (أى كيفها) يعتمد على حدودها وتعدادها ومساحتها وما إلى ذلك من أمور كمية . وتحول الماء من سائل إلى غاز هو المثل الهيجلى للتغيرات الكمية التى تنقلب إلى تغيرات فى الكيف ، وهو المثل الذى يتردد فى جميع الكتب الماركسية التى تعرض لشرح هذا القانون . ولقد سبق أن رأيناه أيضاً يتحدث عن نمو النبات من البذرة إلى الزهرة إلى الثمرة ويعتبر هذه العملية سلسلة من نفى النفى . . إلخ . فهناك باختصار مئات المئات من الأمثلة العينية والوقائع التجريبية التى قدمها هيجل ثم ترددت بعد ذلك كشرح « للقوانين الأساسية للجدل الماركسى »[2] . .

٣٧٠ — والواقع أنه ليس المهم فى شرح الجدل أن نضرب مثلا أو مثلين لهذا القانون أو ذاك وإنما الأهم من ذلك أن نحلل هذه القوانين ونفسرها ونشرح مضمونها ، ونبين الصلة بين بعضها وبعض ، ونكشف عن مصدرها . . . باختصار أن نعرض **لمنطق الجدل نفسه** باعتباره منطقاً جديداً يعارض المنطق الأرسطى القديم ،

---

(١) انظر كتابه الوجود والعدم ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٤٠٣ وانظر كتاب فيندلى السالف الذكر ص ١٠٢ .

(٢) قارن مايقوله سيدنى هوك فى كتابه سالف الذكر من أن « معظم الأمثلة التى أوضح بها إنجلز الجدل فى الطبيعة والتى ذكرها فى كتابه « ضد دوهرنج » ، والتى شاعت جدا فى الكتابات الاشتراكية يجدها القارئ فى كتاب المنطق لهيجل . . » ص ٦٩ .

أو بمعنى أدق يشمل هذا المنطق ويرتكز عليه ، ولكنه يتخطاه ليلقى الضوء على منطق جديد أوسع وأرحب ، وهذا ما لم يفعله أحد قط غير هيجل يقول إنجلز : « إن دراسة صور الفكر وتحديداته عملية هامة جداً ، وضرورية للغاية ، وهذا العمل لم يضطلع به أحد منذ أرسطو غير هيجل . . »[١] . فلو أن الماركسية درست الجدل الهيجلى ثم وضعت منطقاً جديداً يرتكز على هذا الجدل ، ولكنه يتخطاه ، لكانت قد أتت بشىء جديد فى ميدان المنطق والجدل ، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك على الإطلاق . فلم يكتب واحد من الماركسيين شيئاً قط فى **منطق الجدل** ، أى ليس هناك كتاب فيما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » . صحيح أن ماركس أبدى هذه الرغبة لنفر من أصدقائه ذات يوم ، لكنها لم توضع قط موضع التنفيذ ، وحتى هذه الرغبة لم تكن تستهدف إلا عرض الجدل الهيجلى بطريقة مادية . كتب ماركس فى هذا المعنى إلى « كوجلمان » يقول : « حين أفرغ من عبء الأعمال الاقتصادية سوف أكتب فى الجدل . إن قوانين الجدل الصحيحة موجودة فعلا عند هيجل ، لكنها فى صورة مثالية ، ولابد أن ننزع عنها هذه الصورة . . »[٢] . أما « جدل الطبيعة » لإنجلز فهو ليس كتاباً فى المنطق الجدلى ، لكنه أقرب إلى « فلسفة العلم » أو هو يشبه إلى حد كبير « فلسفة الطبيعة » لهيجل ، فهو ليس أكثر من محاولة لتطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية ، وسوف نعود إلى تفصيل ذلك بعد قليل .

٣٧١ — وما يقال على قوانين الجدل التى ذكرها إنجلز ، يصدق كذلك على غيرها من « القوانين الفرعية » للجدل الماركسى . فهى كلها منقولة بنصها عن منطق هيجل فما يسمى بقانون « التغير المستمر والتطور الشامل » هو الفكرة التى عبر عنها أول مثلث فى الجدل الهيجلى ، وأعنى بها مقولة الصيرورة . وهو ما عبر عنه هيجل فى « ظاهريات الروح » تعبيراً يقترب جداً من تعريف الماركسيين للمادة حين قال : « إن الطبيعة الجوهرية للشىء عبارة عن حركة . . »[٣] . وما يسمى بقانون

---

(١) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٣١٨ .

(٢) راجع كتاب سيدنى هوك السابق ص ٦١ .

(٣) قارن قول لينين : « من ذا الذى يصدق أن تكون الحركة ، والحركة الذاتية ، والضرورة الداخلية ، والتغير ، والحيوية والنشاط ، وهو محور الهيجلية المجردة ؟ إن اكتشاف هذا المحور وفهمه ، وتخليصه (من المثالية) هو بالضبط ما فعله ماركس وإنجلز . . . » المذكرات الفلسفية . . ص ١٤١ .

« الترابط الشامل بين الظواهر » هو ما عبر عنه هيجل فى قوة ووضوح فى القسم الثانى من المنطق لا سيما فى مقولة الأساس ، والجوهر والعرض ، والسبب والنتيجة ، والتفاعل . . . إلخ . بل إنه ينتهى إلى أن الوجود الفعلى هو شبكة هائلة من العلاقات المتداخلة كما سبق أن بينا . وما يقال عن اتجاه سير التطور من الأدنى إلى الأعلى ومن البسيط إلى المركب ، هو الفكرة الهيجلية التى تجعل التطور يسير من المجرد إلى العينى ، ومن المباشر (أو البسيط) إلى المركب . وقد شرحناها فى الفقرة رقم ١٤٣ من هذا البحث .

رابعاً : المقولات

٣٧٢ — نستطيع أن نقول إننا لو استثنينا قول هيجل إن المقولات تعريفات للمطلق أو أنها الشروط المنطقية لوجود العالم — فإنه يمكن القول بعد ذلك بأن خصائص المقولات الماركسية هى نفسها المقولات الهيجلية : فهى عامة وشاملة ، وموضوعية وضرورية وهى تعبر عن الماهية الأساسية للأشياء ، وهى لا يخلقها ذهن الإنسان وإنما يكتشفها فحسب لأنها مستقلة عن وعى الإنسان وإرادته . . . إلخ .

وحين يعرض الباحث لبعض هذه المقولات « الماركسية » ، فسوف يبدو واضحاً أنه يكرر المقولات الهيجلية لا أكثر ولا أقل . لكن يبدو أنه من الضرورى أن نعرض سريعاً لبعضها حتى يتضح ما نذهب إليه من أن « الجدل الماركسى » لا وجود له فى الحقيقة ، وإنما الموجود هو الجدل الهيجلى كما استخدمته الماركسية ، أو كما طبقته فى هذا الميدان أو ذاك : ماركس فى علم الاقتصاد وتاريخ المجتمع ، وإنجلز فى ميدان العلوم الطبيعية بصفة خاصة .

٣٧٣ — وفيما يلى بعض هذه المقولات :

١ — هناك مثلا مقولات الكم والكيف والقدر ، ومضمونها هو نفسه المضمون الهيجلى . فالقدر يجمع فى مركب واحد بين الكم والكيف أو هو « الإطار الذى يشمل بداخله وحدة الكم والكيف ، وأى اضطراب فى القدر سواء من جانب

الكم أو الكيف يؤدى إلى تغير فى الشيء بحيث ينقلب إلى شيء آخر . . . » وهذا التغير يتخذ شكل القفزة أو الطفرة . . . أو الخط العقدى الهيجلى .

٢ – وهناك أيضاً مقولتا السبب والنتيجة ، والرابطة السببية عامة وشاملة وضرورية ، وهى تصدق على جميع ظواهر الطبيعة والمجتمع ، البسيطة منها والمعقدة ، المعروفة للعلم أو المجهولة له ، والظواهر التى لا يكون بينها ارتباط سببى غير موجودة ولا يمكن لها أن توجد ، فكل ظاهرة لها بالضرورة سبب .

٣ – التفاعل :

والترابط السببى المتداخل بين ظواهر الطبيعة والمجتمع هو أكثر غزارة وتعقيداً من الترابط الذى تعبر عنه علاقة السبب والنتيجة . ولهذا فإن مقولة السبب والنتيجة تندرج تحت مقولة أوسع هى مقولة **التفاعل** . فالطبيعة تتألف من كل واحد ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بطريقة أو بأخرى . وفى هذا الترابط الشامل نجد أن الظاهرة الواحدة تكون نتيجة لسبب ما ، لكنها تقوم كذلك بدور السبب فى علاقتها بأشياء أخرى .

٤ – المضمون والصورة :

المضمون هو المجموع الكلى للعناصر والعمليات التى يتألف منها الشيء أو الظاهرة . أما الصورة فهى الهيكل الذى يوضع فيه المضمون . والصورة والمضمون لا ينفصلان على الإطلاق لا فى العالم المادى ولا فى الظواهر الطبيعية ، فالمادية الجدلية تؤمن بوحدتهما ، وترى أن تغير المضمون يستتبعه بالضرورة تغير الصورة[1] .

٥ – الماهية والظاهر :

ومفهوم الماهية يشبه مفهوم المضمون ولكنه ليس هو نفسه . إذ بينما نجد أن المضمون يمثل المجموع الكلى **لجميع** العناصر ، فإن الماهية هى الجانب الرئيسى الباطنى الثابت – نسبياً – من الشيء . والماهية هى التى تحدد طبيعة الشيء وجميع

(١) ايفا نسيف فى كتابه السالف ص ١٣٠ – ١٣١ .

جوانبه الأخرى . والظاهر هو الجانب الخارجى ، وهو التعبير المباشر عن الماهية ، أو هو الشكل التى تظهر فيه الماهية . . والماهية تعبر عن نفسها فى الظاهر ، والظاهر ينم عن الماهية ولذا فهما متحدان . ومن هنا فإن التناقض الذى **يظهر** فى المجتمع الرأسمالى يعبر عن **ماهية** النظام الرأسمالى كله .

٦ — الضرورة والحرية :

الحرية هى معرفة الضرورة : « فالضرورة لا تكون عمياء إلا إذا لم تفهم فحسب » كما يقول هيجل . ومن ثم فليست الحرية هى الاستقلال عن قوانين الطبيعة ، ولكنها تقوم فى معرفة هذه القوانين ، وفى إمكان استخدامها استخداماً ناجحاً فى تحقيق أهداف معينة . ويصدق ذلك سواء فيما يتعلق بقوانين الطبيعة الخارجية ، أوفيما يتعلق بالقوانين التى تنظم وجود الإنسان . « ولقد كان هيجل أول من حدد تحديداً سليماً العلاقة بين الضرورة والحرية . . »[١].

٧ — الضرورة والصدفة :

ترى الماركسية أن الميتافيزيقيين لم يستطيعوا فهم المضمون الحقيقى لمقولتى الضرورة والصدفة . ففريق منهم يرى أن الضرورة هى التى تحكم الكون ، لأن ظواهره تخضع لحتمية قاسية . ويذهب فريق آخر إلى القول بأن الضرورة لا أثر لها فى الكون ، لكن الصدفة وحدها هى التى تسود ظواهر العالم . ويرجع خلطهم هذا إلى تمسكهم بهذا المبدأ الميتافيزيقى الصلب الذى لا يلين : « **إما . . أو** » فهو الذى منعهم من فهم اتحاد الضرورة والصدفة فى هوية واحدة ، فكيف يمكن أن يقال — فى نظر هؤلاء الميتافيزيقيين إن العرضى ضرورى ، والضرورى عرضى . . ؟ . « بل إن الفهم المشترك عند عامة الناس ، ومعهم **الغالبية العظمى من علماء الطبيعة** ينظرون إلى الضرورة والصدفة على أنهما فكرتان تطرد كل واحدة منهما الأخرى باستمرار... »[٢]

غير أن التفسير الصحيح للضرورة والصدفة هو أنهما يرتبطان ارتباطاً وثيقاً

---

(١) ف . إنجلز : « ضد دوهرنج » ص ١٣٧ وأيضا لينين « المادية ومذهب النقد التجريبى» ص١٩٠

(٢) ف . إنجلز : « جدل الطبيعة » ص ٢٨٨ — ٩ .

بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، فهما حدان نسبيان يعتمد كل منهما على الآخر . فالصدفة تتحول إلى ضرورة والضرورة تعبر عن نفسها دائماً فى صورة الصدفة . فقد تظهر بعض الخصائص المعينة عند حيوان معين : كأن تنمو للحيوان الذى يعيش فى المناطق الجليدية طبقة سميكة من الجلد لكى تحميه من الظواهر الطبيعية لكن هذه الظاهرة العرضية قد تثبت فائدتها لهذا الحيوان فتجعله أكثر تكيفاً مع البيئة التى يعيش فيها ، ومن هنا يورثها ذلك الحيوان للأجيال القادمة . وهكذا تتحول هذه الخاصية العرضية عن طريق الوراثة إلى خاصية ضرورية .

٨ – الإمكان والواقع :

الإمكان هو شىء لم يتحقق بعد ، أعنى لم يوجد بالفعل ، لكنه يحمل فى جوفه القدرة على التحقق فى الوجود الفعلى . والواقع أو الوجود بالفعل هو إمكان قد تحقق أعنى أنه قد أصبح حقيقة فعلية موجودة فى العالم بعد أن كان مجرد إمكانية ، وهو يظهر إلى الوجود نتيجة للقوانين الموضوعية أو بمعنى آخر نتيجة للضرورة الطبيعية[١] .

والإمكان والوجود بالفعل هما مقولتان متضادتان لكنهما مرتبطتان برباط لا ينفصم خلافاً لما يذهب إليه الميتافيزيقيون من إنكار للصلة بينهما وفصل أحدهما عن الآخر ، فبينما نرى بعض هؤلاء الميتافيزيقيين يذهبون إلى أن الإمكان غير موجود ولا يمكن له أن يوجد ، نرى بعضهم الآخر يذهب إلى أن كل شىء ممكن ، حتى المعجزات ممكنة وكلا الرأيين فاسد من أساسه ، ولا يعبر إلا عن قصور فى فهم المغزى الحقيقى لمضمون الإمكان والواقع . ذلك لأن المقولتين تعبران عن فكرة واحدة : فما هو ممكن هو ما يتفق مع قوانين الطبيعة والمجتمع ، وهو نفسه الموجود بالفعل ، لأن الواقع الموجود فعلا يتفق مع قوانين الطبيعة والمجتمع . ومن ثم فالمقولتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً ، وهما وجهان لشىء واحد . ومن المهم أيضاً أن نعرف أنهما « موضوعيتان » ، لأنهما تعكسان خصائص الأشياء والظواهر المستقلة عن وعى الإنسان . . »[٢].

---

(١) ياخوت : المرجع السابق . ص ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٦ – ٧ .

٩ ــ الفردى والجزئى والكلى :

الفردى هو الموجود العينى ، أو هو الشىء المفرد الموجود فى العالم . وبالتالى فهو أى ظاهرة من ظواهر العالم المادى . والكلى هو ما يطلق على مجموعة من الأشياء أو فئة من الظواهر المترابطة . ومن هنا فإن الكلى يرتبط دائماً بالفردى كما ترتبط اللبلابة بمجموعة الشجر ، وكما يرتبط بطرس بفئة الناس .

إلا أن الكلية أو العمومية على درجات متفاوتة : فاللبلابة مثلا ليست شجرة فحسب لكنها نبات أيضاً . و « بوبى » ليس كلباً فحسب ، لكنه حيوان أيضاً . وهذا يعنى أن الكلى الذى يربط هذه اللبلابة وتلك اللبلابة ويوحد بينهما هو النوع ، أعنى « اللبلابة » بصفة عامة . وهذه الدرجة من التعميم تسمى « بالجزئى » . أما الطبيعة العامة التى تربط بين جميع أشجار اللبلاب ، وبين غيره من الشجر بصفة عامة فى فئة الشجر فهى « الكلى » . وعلى ذلك فإن « بوبى » هو الفردى ، والكلب هو « الجزئى » ، والحيوان هو « الكلى » . والأيدروجين هو الفردى ، والغاز هو الجزئى ، والعنصر الكيمائى هو الكلى . وهكذا نصل إلى هذه التصورات الثلاثة المرتبطة ارتباطاً جوهرياً وهى : الفردى ، والجزئى ، والكلى .

خامساً ــ إنجلز . . . و« جدل الطبيعة » .

٣٧٤ ــ عرضنا فيما سبق لبعض المقولات الماركسية ورأينا أنها لا تحوى فكرة واحدة لم ترد بنصها فى منطق هيجل . ومن ذلك يتضح لنا أنه ليس هناك ما يمكن تسميته « بالجدل الماركسى » ولا « بمقولات الجدل الماركسى » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . وإنما هناك الجدل الهيجلى كما طبقته الماركسية فى هذا الميدان أو ذاك .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المقولات التى عرضنا لها ليست هى « كل » المقولات التى أخذتها الماركسية عن منطق هيجل ، وإنما هى بعض هذه المقولات فحسب وإلا فهناك بالإضافة إليها مقولات : « الهوية والاختلاف ، والطرد والجذب ، والكل والأجزاء ، واللامتناهى الزائف ، واللامتناهى الحقيقى ، والقوة ومظهر تحققها ، والكم المتصل ، والكم المنفصل ، والمجرد والعينى . . . إلخ . إلخ .

وهى موجودة بشكل أو بآخر فى الكتب الماركسية . وهى أيضاً متناثرة فى كتاب إنجلز « جدل الطبيعة » وهو الكتاب الذى يمثل — كما سبق أن أشرنا — المسودات الأولى التى كان يكتبها بغية تطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية[١]. أضف إلى ذلك كله تصنيف الأحكام والقياس فى المنطق الجدلى ، وقد عرض لها إنجلز فى كتابه هذا وذهب إلى أن هذا التصنيف يعارض تصنيف المنطق القديم ، لأنه لا يكتفى « بسرد » الصور المختلفة للحكم والقياس دون أن يبين ما بينها من ترابط ، لكنه على العكس يستنبط هذه الصور بعضها من بعض ، بحيث يندرج بعضها فى بعض ، ويطور الصور العليا من الصور الدنيا . . . إلى آخر تلك الأفكار الهيجلية التى عرضنا لها فى حينها . ثم يذكر إنجلز بعد ذلك تقسيم هيجل للحكم إلى أربع صور بأفرعها المختلفة ويعلق على التقسيم بقوله « إن هذا التقسيم للأحكام قد يبدو جافاً ، بل قد يبدو تقسيماً تعسفيا للوهلة الأولى . غير أن حقيقة هذا التقسيم سوف تظهر واضحة للغاية لمن يدرس العرض الرائع البارع لها فى « المنطق الكبير » لهيجل . وحتى نتبين كيف أن هذا التقسيم لا يقوم على قوانين الفكر فحسب ، لكنه يقوم أيضاً على قوانين الطبيعة سوف نسوق لذلك بعض الأمثلة . . . إلخ »[٢] . وعلى هذا النحو كان يسير إنجلز فى كتابه « جدل الطبيعة » أعنى الاعتماد على المنطق الهيجلى أولا ، ثم جمع الأمثلة المختلفة التى تفسر هذا المنطق وتؤيد صحته ثانياً .

---

(١) قارن مثلا قوله « الطبيعية الحقيقية لتحديدات الماهية (أى لما تضمنه من مقولات) شرحها هيجل حين قال : كل شىء فى الماهية نسبى كالموجب والسالب .. إلخ » . جدل الطبيعة ص ٢٨٣ . « وتصور هيجل للقوة ومظهرها ، والسبب والنتيجة ، وتوحيده بين كل مقولتين منها فى هوية واحدة يبرهن على صحته تغير صور الحركة . . . وهذا واضح فعلا فى عملية القياس فالقوة تقاس بمظهرها ، كما يقاس السبب بالنتيجة» . نفس المرجع ص ٣٦٩ . « وكان هيجل هو الذى حدد تحديداً سليماً معنى اللامتناهى الحقيقى سواء فى الزمان أو المكان أو فى سير الطبيعة والتاريخ . . . » ص ٣١٤ . و « مشكلة إمكان انقسام المادة حلها هيجل بسهولة حين بين أن المادة تنقسم وتتصل فى آن معاً ، وهى لا تنقسم ولا تتصل فى وقت واحد . . » ص ٣٢٤ «والحقيقة القائلة بأن الهوية تتضمن فى جوفها الاختلاف يعبر عنها أى حكم حيث نجد المحمول يختلف بالضرورة عن الموضوع ، فالسوسن أسود ، والوردة حمراء . . . أما قانون الهوية فهو يمثل وجهة النظر الميتافيزيقية القديمة . .» ص ٢٨٥ . وقارن كذلك ص ٢٨١ وأيضاً ٢٨٣ — ٢٨٤ وأيضاً ٢٨٧ — ٢٨٨ وص ٢٩٥ وكذلك ٣١٤ — ٣١٥ وص ٤٠٦ . . . . إلخ . إلخ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩٦ — ٧ .

٣٧٥ – معنى ذلك أن المخطوطات التى نشرت لإنجلز فى نهاية الربع الأول من هذا القرن تحت عنوان « جدل الطبيعة » ليست كتاباً فى الجدل ، لكنها – كما سبق أن أشرنا – محاولات متفرقة أراد بها صاحبها أن يمد نطاق الجدل الهيجلى بحيث يشمل ميدان العلوم الطبيعة . أما أنها ليست كتاباً فى الجدل فهذا ما يصرح به إنجلز نفسه فى وضوح حين يقول : « لسنا معنيين هنا بتأليف كتاب فى الجدل . لكنا نهدف فحسب إلى أن نبين أن القوانين الجدلية هى القوانين الصحيحة لتطور الطبيعة ، وأنها بالتالى تصدق كذلك على علم الطبيعة النظرى . . »[1].

ولقد سبق أن ذكرنا أن إنجلز كان يفكر منذ عام ١٨٧٣ أن يؤلف كتاباً فى « جدل الطبيعة » يحاول أن يبين فيه أن القوانين الهيجلية تنسحب كذلك على المكتشفات العلمية التى ظهرت بعد وفاة هيجل، وأن هذه المكتشفات دليل صدق على صحة الجدل الهيجلى . ذلك لأن هيجل حين طبق الجدل على الطبيعة فى القسم الثانى من مذهبه ، كان يعتمد فى ذلك الوقت على علم الطبيعة فى عصره ، وهو العلم الذى عبرت عنه مدرسة « نيوتن » : « . . . واليوم وبعد أن ظهرت نظرة جديدة للطبيعة ، واكتملت مظاهرها الأساسية ، مست الحاجة من جديد إلى القيام **بنفس المحاولة ، وفى نفس الاتجاه** . . . »[2] . فهى إذن محاولة لإعادة النظر فى التطبيق الجدلى الذى قام به هيجل فى فلسفة الطبيعة ، مست إليها الحاجة بعد أن تطورت العلوم الطبيعية بعد وفاته تطوراً واسع المدى ، وظهرت مكتشفات علمية جديدة لم يكن « الرجل العجوز » يعلم شيئاً عنها .

٣٧٦ – ولقد ظل إنجلز طوال حياته يتطلع إلى تحقيق هذه الرغبة ، لكنه لم يتمكن قط من تحقيقها تحقيقاً كاملا . وبقيت محاولاته فيها مخطوطات متفرقة ومواد منفصلة ، وملاحظات متعددة لا يجمعها سياق واحد منظم ؛ فعلى الرغم من أنه بدأ يجمع مادة هذا الكتاب منذ عام ١٨٧٣ إلا أنه اضطر إلى أن يؤجل الكتابة فى هذا الموضوع حتى يتفرغ لنقد آراء « دوهرنج » فأصدر كتابه المعروف « ضد دوهرنج فى يونيو عام ١٨٧٨ » . ومنه يتضح أنه استفاد كثيراً من المادة العلمية التى جمعها لفكرته الأولى فى الكتابة عن جدل الطبيعة . ويبدو أنه اضطر فى

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

النهاية إلى أن يترك هذه المهمة تماماً بعد وفاة ماركس عام ١٨٨٣ حتى يتفرغ لنشر المخطوطات التى خلفها ماركس ، ولقيادة الحركة العمالية .

٣٧٧ — ونستطيع أن نكوّن فكرة عامة عن الخطوط الرئيسية لكتابه هذا من الرسالة التى كتبها إلى ماركس (فى ٣٠ مايو ١٨٧٣) والتى يبدو منها أنه كانت قد اختمرت فى ذهنه ثلاثة أفكار أساسية عن جدل الطبيعة هى :

١ — التلازم الضرورى بين المادة والحركة ، أو اعتبار الحركة شكل وجود المادة.

٢ — الصور المتنوعة للحركة والعلوم المختلفة التى تدرس هذه الصور : كالميكانيكا ، والفزياء والكيمياء ، وعلوم الحياة .

٣ — الانتقال الجدلى من إحدى هذه الصور إلى الأخرى ، مما يترتب عليه الانتقال من علم إلى آخر (١) .

وهذه الأفكار الأساسية عن جدل الطبيعة لا تختلف كثيراً فى الواقع عن الصورة العامة التى كان قد خططها هيجل فى فلسفة الطبيعة . فنحن نعرف أن هيجل قام أيضاً بدراسة الصور المختلفة التى تتشكل منها الطبيعة ، وقسم هذه الصور — بصفة عامة — إلى ثلاث هى : الميكانيكا ، والفيزياء ، والعضويات ، وذهب إلى أن الميكانيكا تدرس المادة التى لم تتشكل بعد فى هذا الشىء أو ذاك ، أو أنها لا تدرس الموضوعات الجزئية ، لكنها تدرس العلاقة الآلية والهندسية المجردة بين هذه الموضوعات . أما الفيزياء فترتفع من هذه النظرة المجردة إلى دراسة الموضوعات المادية باعتبارها كائنات جزئية لها خصائص معينة ، وصفات محددة ، ويؤدى ذلك إلى دراسة الصور العليا فى الطبيعة أو الطبيعة اللاعضوية . أما الانتقال من الطبيعة اللاعضوية إلى الطبيعة العضوية ، فإنه يتم عن طريق التفاعلات الكيمائية وتمر المادة العضوية بثلاث مراحل هى : الجيولوجيا ، ثم مملكة النبات ، ثم مملكة الحيوان التى يبدأ فيها الوعى فى الظهور ، ومن هنا كان الكائن الحيوانى هو الصورة النهائية للطبيعة فهو يمثل الانتقال إلى الروح .

تلك هى الفكرة الهيجلية عن الطبيعة بإيجاز شديد ، ذكرناها سريعاً لنقول

---

(١) K. Marx & F. Engels : Selected Correspondence. p. 281.

إن كل ما كان ينشده إنجلز هو مراجعة هذه الفكرة على ضوء المكتشفات العلمية الحديثة التى ظهرت بعد وفاة هيجل . وهذا واضح حتى من تصنيفه للعلوم الطبيعية تصنيفاً يكاد يتفق مع التصنيف الهيجلى السابق . .[١].

٣٧٨ – فلم يحاول إنجلز – إذاً – أن يكشف عن منطق جديد فى « جدل الطبيعة » لكنه هنا وهناك يطبق المنطق الهيجلى فى كل ما يكتب دون أن يحاول قط أن يخرج على مقولات هذا المنطق . وهو فى هذا كله يحاول أن يصل إلى هدفين :

الأول : أن يبرهن على أن الطبيعة تعمل على نحو جدلى لا على نحو ميتافيزيقى. فالطبيعة فى نظره « هى التى تبرهن على صحة الجدل ، ويجب القول بأن العلوم الطبيعية قدمت لهذه البرهنة مواد غنية إلى أقصى حدود الغنى وهى مواد تزداد كل يوم . . وهكذا يثبت العلم فى نهاية المطاف أن الطبيعة تعمل على نحو جدلى لا على نحو ميتافيزيقى »[٢] .

أما الهدف الثانى : فهو أن يشرح لنا كيف أن المنطق الهيجلى إذا ما انفصل عن مذهبه المثالى ، وتخلص مما فى هذا المذهب من صوفية ، فإن قوانينه الجدلية لا تصبح واضحة وضوح النهار فحسب ، بل « . . تصبح ضرورة مطلقة للعلم الطبيعى . . »[٣] .

ولذلك نجده بعد أن يعرف الماهية الأساسية للمادة بأنها الحركة اللازمة لها بحيث يصبح وجود المادة بدون الحركة مستحيل التصور ، يحدد الشكل الأساسى للحركة بأنه الصراع بين مقولتى الجذب والطرد ، ويرى أن وحدة هذين الضدين وصراعهما المستمر هو الذى يحدد كل تجمعات المادة من حيث التكوين والتطور ، ومن حيث التحول والزوال ، ولذا نراه يهاجم النظرية التى تجعل من الجذب وحده الماهية الأساسية للمادة « . لأنها نظرية خاطئة بالضرورة ، فحينما يكون الجذب ، يكون الطرد كذلك . لذلك فقد كان هيجل على حق تماماً حين قال إن ماهية المادة هى الجذب والطرد . . »[٤]. لأن الطرد والجذب متلازمان تلازم الموجب والسالب تماماً ،

---

(١) انظر جدل الطبيعة ص ٣٢٩ . وما بعدها . .

(٢) F. Engels : Anti-Dühring. p. 36.

(٣) Dialectics of Nature. p. 272.

(٤) F. Engels : Ibid. p. 323.

ولذا فإن الجدل يقرر « أن النظرية الصحيحة عن المادة لابد أن تفسح مجالا للطرد كما تفسح مجالا للجذب سواء بسواء . وهو يقرر أيضاً أن النظرية التى تقوم على الجذب وحده نظرية زائفة وناقصة لأنها لا تعبر إلاعن جانب واحد فحسب .. »[١].

٣٧٩ — على هذا المنوال يسير إنجلز فى « جدل الطبيعة » . وسوف نكتفى فيما يلى — بالإضافة إلى ما تقدم — بثلاثة أمثلة من ثلاثة علوم لنلقى الضوء على ما نقول من أنه كان يعرض للعلوم الطبيعية المختلفة بمنظار الجدل الهيجلى فيراها برهاناً على صدق هذا المنطق ويقينه .

فهو حين يتحدث مثلا عن علم الطبيعة لا يرى فيه إلا العلم الذى « . . يدلنا على أن كل تغير هو انتقال من الكم إلى الكيف ، نتيجة للتغير الكمى لمقدار الحركة . . »[٢] وهو بالإضافة إلى المثل الهيجلى الذى يسوقه عن تحول الماء من سائل إلى غاز يذكر عدة أمثلة توضيحية أخرى[٣] . ثم يصل إلى هذه النتيجة « باختصار إن ما يسمى فى علم الطبيعة بالنقاط الثابتة ليس إلا النقاط العقدية التى تؤدى فيها التغييرات الكمية — أى زيادة الحركة أو نقصها — إلى إحداث تغيرات كيفية فى حالة الجسم موضع الدراسة أى أنها النقاط التى يتحول عندها الكم إلى كيف . . »[٤].

والعلم الثانى الذى نذكره سريعاً هو علم الكيمياء الذي يفتتح إنجلز الحديث فيه بهذه العبارة : « أما الميدان الذى تلألأ فيه قانون الطبيعة الذي اكتشفه هيجل ، وكلل بانتصارات بالغة الأهمية فهو ميدان الكيمياء ؛ إذ يمكن أن يقال إن الكيمياء هى علم تغير الأجسام تغيراً كيفياً وفقاً للتغيرات التى تحدث فى التركيب الكمى . وكان هيجل نفسه يعرف ذلك . »[٥] . ثم يعرض بعد ذلك لأمثلة مختلفة عن

---

(١) Ibid. p. 323.

(٢) بل يرى أحيانا أنه على الرغم من أن مقولات هيجل صوفية ، إلا أنه استطاع بواسطتها أن يتنبأ بالمكتشفات العلمية التى ظهرت بعد ذلك . قارن مثلا . « جدل الطبيعة » ص ٣٢٤ .

(٣) قارن نفس الشرح للقوانين الهيجلية فى كتابة « ضدد وهرنج » ثم قوله بعد ذلك : هذا هو تماماً الخط العقدى الهيجل لعلاقات مقولة القدر . . . إلخ » . ص ١٧٣ .

(٤) Ibid. p. 87.

(٥) Ibid. p. 87-8.

التركيبات الكيمائية للأكسوجين وكيف أننا نحصل بثلاث ذرات منه — بدلا من ذرتين كما هو المعتاد — على غاز « الأوزون » وهو جسم جديد يتميز تماماً عن الأكسوجين ؛ ثم كيف أننا نستطيع أن نحصل بنفس الطريقة على « أول أكسيد الأزون » و « خامس أوكسيد الأوزون . . . إلخ » أى باختصار يتحدث عن التركيبات الكيمائية المختلفة لكى يبرهن على أن الاختلاف فى تركيبها **الكمى** هو سبب اختلافها **الكيفى** . وما يهمنا من ذلك كله هو أنه لم يكن يعرض لسلسلة من التركيبات الكيمائية إلا ويقول : « نحن فى هذه السلسلة نلتقى بالقانون الهيجلى فى صورة أخرى . . »[١] . ثم يقول فى النهاية « . . وأخيراً فإن القانون الهيجلى قانون صحيح ، وهو لا يصدق على المواد المركبة فحسب ، بل يصدق كذلك على العناصر الكيمائية . . . »[٢] .

والعلم الثالث الذى نذكره هو علم وظائف الأعضاء الذى يرى « إنجلز » أنه لا يمكن أن يكون علماً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ما لم يأخذ بالفكرة الهيجلية التى ترى أن الموت عنصر ضرورى وعامل جوهرى للحياة ، وأن « سلب » الحياة موجود أساساً فى الحياة نفسها ، وبالتالى فلا يمكن التفكير فيها إلا من حيث علاقتها الضرورية بالموت الذى تحمل فى جوفها بذرته : « وليس التصور الجدلى للحياة شيئاً غير ذلك ، فالحياة تعنى الموت »[٣] .

٣٨٠ — ومن ذلك كله يتضح لنا كيف أن إنجلز كان يرى أن المنطق الجدلى الهيجلى ينطبق بالضرورة فى ميدان العلوم الطبيعية ، وأن هذه العلوم هى البرهان العملى على صحة هذا المنطق الذى يبدو واضحاً « وضوح النهار » فى جميع المجالات . وذلك يعنى أن الماركسية لم « تعكس » الجدل الهيجلى ، ولم تقمه على قدميه ، وإنما طبقته كما هو بعد أن حذفت التصور المثالى للعالم ، ولهذا فكثيراً ما نصادف مثل هذه العبارة فى تطبيق إنجلز للجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية : « . . هيجل هنا مادى صميم ، أكثر بكثير من علماء الطبيعة المحدثين . . »[٤] . أى أن هيجل هنا لا يقف على رأسه وإنما يقف على قدميه ، بل وبثبات أكثر

---

(١) Ibid. p. 88. (٢) Ibid. p. 90.

(٣) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 387.

(٤) Ibid. p. 391.

بكثير من علماء الطبيعة . وإذا ما تساءلنا عن السبب فالسبب واضح : إن إنجلز هنا يتحدث عن منطق هيجل لا عن مذهبه .

سادساً ــ كلمة ختام

٣٨١ ــ نخلص من ذلك كله إلى ما سبق أن قلناه مراراً من أن الجدل الماركسى ومقولاته ليس شيئاً آخر غير الجدل الهيجلى ، وأن الماركسية تبنت الجدل الهيجلى كما هو دون أن تقلبه أو تعكسه . ومما تقدم نستطيع أن نقول بإيجاز شديد إن الماركسية لم تترك من المنطق الهيجلى كما عرضناه فى هذا البحث شيئاً يستحق الذكر . صحيح إنها رفضت بعض الأفكار الهيجلية كالفكرة الشاملة ، والعقل ، والروح ، والمطلق . . . إلخ . لكن ذلك كله لا يدخل فى صميم المنطق ، وإنما هو ينتمى إلى التصور الهيجلى المثالى للعالم ، أما مقولات الوجود ، وارتباط كل مقولة بالأخرى وانتقالها إليها ، وما إلى ذلك من أفكار فهو ما نصادفه فى الكتب الماركسية التى تتحدث عن الجدل . وقل مثل ذلك فى مقولات الماهية وانعكاس هذه المقولات بعضها فى بعض ونسبيتها . . . إلخ . ونفس الملاحظ تنطبق كذلك على القسم الثالث من المنطق الهيجلى الذى يحدد العلاقة بين الكلى والجزئى والفردى ، ثم يعرض تصنيف الأحكام وضروب القياس تبعاً للعلاقات المختلفة بين الأفكار الثلاثة السابقة . هذه كلها هى مكونات ما يسمى بالجدل الماركسى . وبديهى أن حذف بعض المقولات الفرعية هنا وهناك لا يؤثر فيما نقول ، فقد قام هيجل نفسه بحذف بعض المقولات الفرعية حين أعاد كتابة المنطق فى الموسوعة .

٣٨٢ ــ وإذا كان إنجلز يقول أحياناً « هيجل مادى هنا . . » وإذا كنا قد فسرنا مضمونها بأنه حديث عن منطق هيجل لا عن مذهبه ، فإن لينين يعطينا هذه الفكرة بصورة أوضح وأشمل ويؤكد بوضوح هذا التفسير . يقول فى مذكراته الفلسفية : « . . . فى هذا الكتاب (المنطق) ، وهو عمل هيجلى مثالى ، نجد **القليل** من المثالية **والكثير** من المادية ، أليس ذلك تناقضاً . . . ؟

لكنه حقيقة . . . ! »[١]. والتناقض الذى يشير إليه لينين هنا هو ارتباط هذا المنطق الجدلى بمذهب هيجل المثالى ، أو وجود هذه « النواة العقلية » فى قلب ذلك الغلاف الصوفى » . ويقدم لينين ملاحظة أخرى هامة عن الفصل الأخير من منطق هيجل تجدر الإشارة إليها لأن المنطق فى هذا الفصل يصل إلى قمته عند الحديث عن الفكرة المطلقة . يقول لينين : « مما تجدر ملاحظته أن الفصل الذى عقده هيجل عن الفكرة المطلقة يندر أن تجد فيه — كله — كلمة واحدة عن الله ، وفضلا عن ذلك فهو لا يتضمن شيئاً من المثالية بصفة خاصة . وإنما هو يدرس الذات **والمنهج الجدلى** ، وإنه لمما يستلفت النظر حقاً أن تكون آخر عبارة يقولها وهى فى نفس الوقت تلخص جوهر منطق هيجل كله ، هى عبارة : **المنهج الجدلى** . . »[٢].

٣٨٣ — والواقع أن لينين لو ذهب إلى أن المنطق الهيجلى يخلو من المثالية والمادية معاً لكان فى ظننا أقرب إلى الصواب . ذلك لأن هذا المنطق ليس إلا دراسة عقلية لصور الفكر ومقولاته ، وعرض بارع للركائز التى قامت عليها المعرفة البشرية على مر العصور ومحاولة جادة لشرح مضمونها ، وتوضيح علاقتها بعضها ببعض ، ومن هنا فهو لا يوصف بالمثالية أو المادية إلا من حيث ارتباطه بهذه الفلسفة أو تلك[٣] . ولا أدل على ذلك من أن المثالية الهيجلية استخدمت هذا المنطق حين ربطته بمذهبها ، فى الوقت الذى جاهدت فيه الماركسية لكى تخلصه من هذا « الغلاف المثالى » حتى تربط بينه وبين المفهوم المادى للطبيعة والتاريخ ، ولتذهب بدورها إلى أنه يشكل مع الفلسفة المادية وحدة عضوية لا تنفصم .

ويدلنا على ذلك أيضاً أن الماركسية نفسها كانت ترى أن انتشار المنطق الجدلى فى البلدان الأوربية — حتى مع ارتباطه بالمذهب الهيجلى المثالى — هو فى حد ذاته — فاتحة خير ، فقد يؤدى ذلك بالمفكرين فى هذه البلاد أن يقفوا على الحقيقة حين

---

(١) V. Lenin : Collected Works. Vol. 38. p. 234.

(٢) Ibid . p. 234.

(٣) ذلك لا يتعارض بالطبع مع القول بأن الجدل قد ارتبط فى تاريخه الطويل بالفلسفة المثالية لقربها منه ، ولأن الجدل لا يكون إلا حيث يكون الوعى . وسوف نعود إلى ذلك فى الفصل القادم .

يتخذون من الجدل الهيجلى سبيلا للكشف عنها بغض النظر عن القشرة المثالية التى تغلفه . ولهذا نرى « إنجاز » يستبشر خيراً من هجرة الهيجلية إلى إنجلترا فى أواخر القرن الماضى ، لأن ذلك يعنى أن الفلسفة فى إنجلترا سوف تقلع عن ترديد الأخطاء التى وقع فيها كانت وهيوم من قبل ، « فكان من البديهى تماماً أن يميل إلى توقع الخير من ظهور الهيجلية فى إنجلترا . . . أملا فى أن يسهم هذا الفيلسوف المثالى والجدلى العظيم فى توضيح الأخطاء المثالية والميتافيزيقية الصغيرة التى كانت تقع فيها الفلسفة فى هذه البلاد . . . »[١].

لكن الهيجلية الجديدة كانت تياراً مثالياً ، فاستخدمت المنطق الهيجلى — كما هى الحال فى الهيجلية الأم — استخداماً مثالياً ، فخاب أمل الماركسية فراحت تصفه بأنه : « تيار من أعظم التيارات رجعية فى الفلسفة المثالية . . انتشر فى عدد من الدول الرأسمالية بعد الحرب العالمية الأولى . وما زالت آثاره باقية حتى اليوم . ولقد شوه دعاتها الجدل المثالى عند هيجل ، فطرحوا جانباً كل ما له قيمة حقيقية فى هذا الجدل ، وحاولوا أن يستخدموه فى محاربة الفلسفة الماركسية بغية الوصول إلى تبرير سوفسطائى للأفكار السياسية الرجعية ، وغيرها من الأفكار المنافية للعلم . . »[٢].

٣٨٤ — ولعل ذلك يؤكد ما يقوله « ولاس » من أن أصحاب اليمين وأصحاب اليسار جميعاً استخدموا المنطق الهيجلى وتأثروا به ، وزعم كل منهم أنهم الورثة الحقيقيون للنبى[٣] . وإذا كانت الماركسية حاولت جاهدة أن تربط بين الجدل الهيجلى والمذهب المادى فلابد أن نسوق كلمة موجزة فى هذه الخاتمة عن استخدام الماركسية لهذا الجدل مرجئين نقد المنهج ككل إلى الفصل القادم .

٣٨٥ — يمكن القول بأن الماركسية استخدمت الجدل الهيجلى فى ميدانين مختلفين : الميدان الأول وهو الذى ارتبط باسم ماركس بصفة خاصة : هو ميدان الحياة الإنسانية والعلوم الإنسانية بصفة عامة من تاريخ واجتماع واقتصاد . . . إلخ . أما الميدان الثانى فهو ميدان العلوم الطبيعية ، وهو الاستخدام الذى ارتبط باسم

---

(١) V. Lenin : "Materialism and Emp." p. 353.

(٢) "Fundamentals of Marxism"; p. 83.

(٣) W. Wallace : Prolegomena; p. I.

إنجلز بصفة خاصة . والواقع أن الاستخدام الأول هو الأقرب إلى الفهم والتصور ، بل إن كثيراً من الباحثين — من غير الماركسيين — يذهبون هذا المذهب . فيرى بعضهم مثلا أن من الضرورى فى دراسة التاريخ أن نربط بين الأفكار التى عبرت عنها العصور التاريخية المختلفة ، بحيث تبدو هذه العصور حلقات مترابطة ، ولفهم هذه الحلقات فإنه لا مناص من استخدام الأفكار الجدلية لإلقاء الضوء على الارتباطات الداخلية بينها ، ويهاجمون بشدة المآخذ التى أخذها « كروتشه » على هيجل فى هذا الصدد . وسواء أكان استخدام الأفكار الجدلية ضروريًّا لفهم التاريخ أم لم يكن ، فإنه على الأقل استخدام مفهوم ، وله معنى وله مبرراته التى يستند إليها أصحابه . وقل مثل ذلك حين نقول مثلا إن هناك صراعاً بين النظم الاجتماعية ، أو تطاحناً بين الطبقات التى يتكون منها المجتمع ، أو تناقضاً بين مصالح العمال ومصالح رءوس الأموال . . إلخ . كل ذلك يمكن أن يفهم وأن يناقش وأن يكون له معنى لدى السامع . والسبب أن هذه المجالات كلها تتضمن **وجود الوعى** بدرجة كبيرة أو صغيرة .

أما الاستخدام الثانى للجدل الهيجلى ، فهو استخدام لا معنى له ، وليس له ما يبرره . ولهذا فإن محاولة إنجلز تطبيق الجدل الهيجلى فى ميدان العلوم الطبيعية — بعد أن رفض وجهة النظر المثالية — محاولة محكوم عليها بالفشل لا محالة . وينسحب ذلك أيضاً على الربط بين الجدل والمادة بصفة عامة . فإذا كان التناقض نفسه يعنى أنك لا تقول شيئاً ، أو أنك لا تقرر شيئاً على الإطلاق ، فكيف يمكن أن يقال بعد ذلك إنه **موجود** فى العالم ؟ بل كيف يمكن أن نقول إنه **حقيقة** هذا العالم . . ؟ [١].

وإذا كان من الممكن أن يكون هناك صراع بين الطبقات وتناقض فى مصالحها ، فكيف يمكن أن يكون هناك صراع فى جوف المادة . . ؟ كيف يمكن أن يكون هناك **تناقض** داخل الذرة بين النواة والإلكترون . . ؟ أى تناقض هذا الذى يكون بين عنصرين من عناصر تكوين الشىء . . ؟ ألأن الشىء يتكون من عناصر « مختلفة » فإنه بذلك يكون قد تناقض مع نفسه . . . ؟ أ إذا قلت إن منزلى يتكون من أربع

---

(١) J.N. Findlay : "Hegel"; p. 77.

غرف كان معنى ذلك أن كل غرفة « تناقض » الأخرى . . . ؟ أإذا وصفت شيئاً من الأشياء بأنه يتكون من كذا وكذا من العناصر المختلفة ، كان معنى ذلك أنه يحوى فى جوفه تناقضاً وصراعاً ، وأن كل عنصر « يناقض » الآخر . . . ؟ .

يبدو أن مصدر الخلط يأتى أحياناً من وجود التغير والحركة فى ظواهر الطبيعة فهذا المنزل الذى أراه قائماً أمامى الآن لن يلبث بعد فترة طويلة أو قصيرة أن يكون أثراً بعد عين لأنه دائم التغير . وإذا كانت التغيرات التى تطرأ كل يوم على هذا المنزل طفيفة للغاية حتى لا تكاد تلاحظ ، فإن هذا التغير الطفيف المتدرج المستمر سيصل يوماً إلى حد ينقلب معه المنزل « فجأة » إلى ضده ، فتراه قد تحول إلى كومة من تراب . ونحن لا نشك فى وجود التغير فى كل مكان ، لكن السؤال يبقى مع ذلك قائماً : هل هذه الكومة من التراب هى « ضد المنزل » ، هل هى **نقيضه** أم أنهما شيئان مختلفان فحسب . . ؟ قد يقال لكن التناقض هو فى عدم ملاحظة التغير المستمر الذى يطرأ على الشىء ، أو هو فى تصور الأشياء « هى هى » مع أنها دائمة الحركة والتغير « فى كل لحظة » ، فحين أقول إن هذا الحجر الذى أمامى هو هو الذى كان بالأمس ، أو إنه هو كما هو الآن ساكناً فإننى بذلك « أتناقض » مع حقيقة علمية هى أن هذا الحجر يتألف من ذرات دائمة الحركة . غير أن ذلك فى الحقيقة ليس تناقضاً ولا تضاداً ، إنه فقط تعبير عن **مستويين مختلفين** من الإدراك وقل مثل ذلك حين أنظر إلى كوب الماء فأراه بالعين المجردة نقياً صافياً ، بينما آراه تحت المجهر مليئاً بالعلائق والميكروبات . ليس ثمة تناقض بين الحالتين ، وإنما هما فقط موقفان مختلفان يمثلان مستويين مختلفين من الإدراك : الإدراك العادى أو إدراك رجل الشارع ، ثم إدراك العالم بأجهزته ومخابيره . وليست معرفتى للشمس بأنها « قرص صغير » بمناقضة لمعرفة العالم بأنها أكبر من الأرض ملايين المرات . دع عنك أن تكون الشمس تحمل فى جوفها « تناقضاً » .

٣٨٦ — ليس هناك تناقض ولا صراع ولا أضداد بين أشياء الطبيعة ، لا فى علاقتها بعضها ببعض ، ولا فى « داخل » كل منها . وإنما هناك فقط ظواهر كثيرة وأشياء مختلفة ومتعددة ، تتكون كل منها من عناصر مختلفة ومتنوعة . وهذه العناصر المختلفة التى تتألف منها الأشياء ليست مما يجيز لنا القول بأنها عناصر **متضادة** ،

ومركبات **متناقضة** تضم فى جوفها « صراعاً » مستمراً هو مصدر الحركة والتطور . ويبدو أن الخلط ينشأ من استخدام تعبير غامض هو « جدل الطبيعة » بديلا لتلك الحقيقة البسيطة المعروفة وهى أننا نلاحظ **التغير** فى جميع الميادين (١).

وما يقال عن التناقض والتضاد فى الطبيعة يقال كذلك على السلب ؛ فأشياء الكون وظواهره هى كلها عبارة عن وقائع موجبة لا أثر فيها للسلب . وليست « الكهرباء السالبة » ، و « الموجة السالبة » ، و « الشحنة السالبة » . . . . إلخ . إلا مصطلحات علمية لوقائع موجبة . وكلمة « موجبة » لا تعنى هنا أكثر من أنها أشياء موجودة فحسب . وليست يدى اليسرى سالباً ليدى اليمنى ولا نقيضاً لها ، ولكنهما معاً **واقعتان موجبتان** (وهما كلمتان مترادفتان فى الواقع) مختلفتان . وبديهى أن الاختلاف لا يعنى التناقض أو السلب . . إلخ . ومعنى ذلك أن السلب لا يكون إلا سلباً لفكرة ، أو بتعبير أدق السلب سلب فى **حكم** ولا معنى للسلب بدون حكم ، فإذا قلت إن « أ ليست ب » فإن السلب فى هذه الحالة لا يكمن فى جوف « أ » ولا فى داخل « ب » وإنما هو ينصب على العلاقة بينهما .

٣٨٧ — أما انتقال الأشياء من الكم إلى الكيف ، فهو قول أقرب إلى الأقوال الذاتية والتعبيرات المثالية منها إلى التعبير العلمى الدقيق ؛ فالبحث العلمى فى الواقع لا يهتم على الإطلاق بتوضيح العبور من الكم إلى الكيف ، لكنه يبدأ من الكيف المحسوس بوصفه مظهراً **ذاتياً خداعاً** ، حتى يجد وراءه الكم بوصفه حقيقة الكون(٢). فالكم يولد الكم فى نظر العلم ، والقانون العلمى صياغة كمية ، كما أن العلم لا تتوفر لديه أية رموز للتعبير عن الكيف من حيث هو كيف .

وحتى إذا سلمنا بأن التغيرات الكمية المتدرجة فى حرارة الماء ينتج عنها تحول كيفى بحيث يتغير الماء ويصبح بخاراً ، فماذا بعد ذلك . . ؟ يتحول البخار بعد ذلك إلى ماء مرة ثانية ، فأين هو التقدم . . ؟ « إننى أرى هنا دورة . لا شك أن الماء لم يعد محتوى فى الإناء ، لكنه فى الخارج على الأعشاب والأرض ، وفى شكل ندى .

---

(١) S. Hook : "From Hegel To Marx". p. 75.

(٢) جان بول سارتر : « المادية والثورة » ص ١٦ — قارن الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « نحو فلسفة علمية » ص ٣١٠ — ٣١٨ .

لكن ذلك ليس إلا تغيراً فى المكان . فباسم أى ميتافيزيقا نرى فى هذا التغير المكانى تقدماً . . »[1] .

ثم هل صحيح أن « الخط العقدى » موجود فى جميع التغيرات ، بمعنى أن كل التغيرات تكون بطيئة أول الأمر ثم تظهر واضحة جلية عند نقطة بعينها . . ؟ أ إذا اتحدت ذرتان من الأيدروجين مع ذرة من الأكسوجين ألا ينتج عنهما الماء بشكل مباشر دون تغير تدريجى ، ودون نقاط عقدية . . ؟ .

٣٨٨ — لا نريد أن نطيل كثيراً فى مناقشة « جدل الطبيعة » هذا فهو ظاهر البطلان ، وقد أفاض « جان بول سارتر » فى تفنيده فى مناقشاته الخصبة مع الماركسيين الفرنسيين . لكنا نريد فى النهاية أن نسوق بعض الملاحظات العامة عن الربط بين الجدل والطبيعة ، وسوف تظهرنا على أن مثل هذا الربط يفتح الباب على مصراعيه أمام المثالية الهيجلية من ناحية ، ويكشف لنا من ناحية أخرى أن هيجل حين تحدث عن جدل الطبيعة كان أكثر اتساقاً وتماسكاً . ثم يتبين من ناحية ثالثة أن القول بجدل الطبيعة والزعم مع ذلك بمعارضة الهيجلية هو تناقض فى حد ذاته :

أولا : إن التسليم بوجود « صراع » بين « الأضداد » الكامنة فى جوف الأشياء لا يكون له معنى إلا فى حالة واحدة فقط هى التسليم — ولو بطريقة ضمنية — بوجود لون من **ألوان الوعى** فى الطبيعة — ومن هنا فقد كان لهيجل ما يبرره فى حدود مذهبه حين مد نطاق الجدل إلى الطبيعة . إذ لو كانت الطبيعة وعياً ذاتياً ضمنياً فإنه يمكن فى هذه الحالة أن تحلل تحليلا مشروعاً إلى سلسلة متصلة من الحدود ، كل حد فيها — بمعنى ما — على وعى بالحدود التالية داخل السلسلة ، ولا تكون هذه العلاقة بين تلك الحدود واضحة بغير هذا الخيط من الوعى . ومن هنا جاز لهيجل أن يكتب فلسفة الطبيعة ، وأن يتحدث عن صراع الشىء مع نفسه ، ومحاولته الدائمة ليجاوز نفسه وليحقق ذاته . وكيف يمكن للشىء أن **يجاوز حدوده** نفسها إلا بهذا المعنى . . ؟ وكيف يمكن من ثم أن نفهم مقولتى الإمكان والواقع ،

---

(١) نفس المرجع ص ١٧ .

والقول بوجود **إمكان** فى جوف الشيء يحاول أن يحققه بالفعل حين يحطم حدوده الأصلية ، إلا إذا نسبنا لهذا الشيء لوناً من ألوان الوعى . . ؟ .

ثانياً : إن القول بأن الطبيعة تسير من الأدنى إلى الأعلى ، ومن البسيط إلى المركب فى تطورها التقدمى الصاعد ، يعنى القول بوجود **غاية** تسعى الطبيعة إلى تحقيقها . وما لم تتحرك الطبيعة نحو غاية ، فلن يكون هناك تقدم ، وبالتالى لن يكون هناك مرحلة **دنيا** ومرحلة **عليا** . فإذا قلنا إن هناك مرحلة عليا ، فلن يكون لهذا القول معنى ما لم يشر إلى مستوى من الكمال ، أو إلى غاية تتجه إليها حركة العالم ، ولا يزودنا العلم الحديث بهذه الغاية . أما عند هيجل فالغاية هى التحقق الفعلى للعقل أو الفكرة الشاملة فى العالم ، وهذه الغاية تبلغ مداها — إلى حدما على الأقل — فى الإنسان فهو الموجود العاقل .

ثالثاً : القول بأن « **العالم كل واحد** » ، وأن قوانين الجدل فى الطبيعة هى نفسها قوانين الجدل فى الحياة الإنسانية ، ثم رد الثانية إلى الأولى ، وبالتالى رد الصراع والتناقضات فى الحياة الإنسانية إلى جذورها الأولى فى الطبيعة — هذا القول يعنى أن هذا الكل الواحد الضخم الذى يخضع لقوانين واحدة ، هو الكل الهيجلى الواعى : هو العقل الشامل . ولنقارن ما يقوله الماركسيون من اختلافات نوعية بين عمل القوانين الجدلية فى الحياة الإنسانية وبين عملها فى الطبيعة ، بما يقوله هيجل من أن الطبيعة لا تعبر عن المقولات فى صفائها ونقائها فليس ثمة اختلاف بين القولين فالمهم أن القوانين واحدة وشاملة : « وذلك يعنى أن الطبيعة كلها واعية ، وهى عبارة لا يستطيع قبولها إلا الفيلسوف الهيجلى المثالى وحده »[1] ، والحق إن الربط بين القوانين الجدلية فى الطبيعية والقوانين الجدلية فى الحياة الإنسانية يكشف عن كثير من الخلط والتعسف ؛ لأنه أيا ما كانت أشكال التغير والحركة فى العالم وظواهره ، فإنها يقيناً ليست الأساس فى صراع الطبقات . وليس ثمة حاجة إلى أن نبين أن هناك قفزات وطفرات فجائية فى **الطبيعة** ، لكى نبرر الثورة فى **المجتمع** . لأن مشكلة اتصال ظواهر الطبيعة بعضها مع بعض فى جميع النقط أو انفصالها عن بعضها

---

(١) S. Hook : op. cit. p. 76.

فى حالات معينة هى مشكلة تجريبية وحلها لا يعنى على الإطلاق حل المشكلات الاجتماعية[١] .

رابعاً : إذا جاز لفيلسوف مثالى مثل هيجل أن يرى فى تطور المعرفة البشرية صورة من صور التطور الجدلى للفكر ، فكيف يجوز لرجل مادى أن يتبنى هذه الفكرة . . ؟ كيف يجوز لإنجلز — مثلا — أن يذهب إلى القول بأن الخطوات التى سارت فيها البشرية فى اكتشافها للحرارة هى نفسها الخطوات التى يسير فيها التصنيف الهيجلى للأحكام . . . ؟ فإذا كان هذا التصنيف يبدأ بأحكام الملازمة ، فلابد أن تكون الخطوة الأولى التى تخطوها البشرية نحو اكتشاف الحرارة هى التعرف على هذا الحكم فى الطبيعة ، فإنسان ما قبل التاريخ قد عرف — ربما منذ مائة ألف عام — أن الاحتكاك يولد الحرارة « . . وحين جاء الوقت المناسب استطاع العقل البشرى أن يصدر هذا الحكم : الاحتكاك هو مصدر الحرارة . . حكم موجب من أحكام الملازمة »[٢] وهكذا لم يكن فى استطاعة البشرية أن تصل إلى اللون الثانى من الأحكام قبل أن تصوغ هذا الحكم ، ثم كان عليها أن تقوم بمحاولات كثيرة ومتعددة « . . حتى تنتقل من حكم الملازمة السابق إلى هذا الحكم الكلى من أحكام الانعكاس : كل حركة آلية يمكن أن تتحول إلى حرارة عن طريق الاحتكاك . . ». وهكذا تسير البشرية بالضرورة وفقاً للتصنيف الهيجلى للأحكام ، وهو التصنيف اليقينى الذى لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه، إلى أن وصلت فى النهاية إلى حكم الفكرة ، فصاغت هذا الحكم : أى « صورة من صور الحركة — تحت شروط معينة لكل حالة — يمكن أن تتحول بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى أى صورة أخرى من صور الحركة »[٣] وهكذا يصبح التطور العقلى لصور الحكم عند هيجل هو نفسه الخط الذى تسير فيه معرفتنا النظرية لطبيعة الحركة بصفة عامة كما يدل على ذلك التاريخ وكما تبرهن التجربة ، وذلك يدلنا على أن قوانين الفكر حين تكون صحيحة ، فإنها لابد بالضرورة أن تتفق مع قوانين الطبيعة، وبما أن آخر حكم عند هيجل هو حكم الفكرة، وطالما أن البشرية

---

(١) Ibid. p. 76.

(٢) F. Engels : "Dialectics of Nature". p. 289.

(٣) Ibid.

قد وصلت فعلا إلى هذا الحكم : « فإن المكتشفات العلمية الجديدة لن تقدم لنا سوى أمثلة توضيحية فحسب ، لأنها لا تستطيع أن تضيف شيئاً جديداً إلى القانون نفسه فى صياغته الأخيرة . . »[١] .

خامساً : إذا كان إنجلز يعيب على هيجل أنه يفرض نسق الفكر على الكون ، فإن هذا هو فى الواقع ما يفعله إنجلز نفسه بشكل أكثر تعسفاً ، وإلا فماذا نقول فى رجل يخبرنا أن تطور العالم المادى والروحى على السواء تحكمه **ثلاثة قوانين** لا أكثر ولا أقل ، ثم يرفض الخوض فى المناقشات التفصيلية لمضمون هذه القوانين وعلاقة كل منها بالآخر . . . ؟ ماذا نقول فى رجل لا يخبرنا عن مصدر هذه القوانين أكثر من الإحالة المستمرة إلى كتب هيجل . . ؟ هكذا قال هيجل ، وهكذا يسير الكون ويتم التطور .

نقول إن إنجلز أساء فهم الجدل الهيجلى ، وطبقه تطبيقاً أعوج ، حين حطم الرأس وفرض على الجسم السير بلاعقل وبلا وعى . ولعل هذا ما كان يعنيه « هوك » حين قال إن إنجلز أخذ من الجدل الهيجلى أكثر بكثير مما استطاع أن يهضم[٢] . ونقول أيضاً إن الماركسية حين جمعت بين المنطق الهيجلى والمادة قد فرضت على « الماكينة » الهيجلية أن تعمل بوقود غريب عنها — كما يقول فيندلى[٣] .

---

(١) Ibid. p. 298-9

(٢) S. Hook : op. cit. p. 75.

(٣) J.N. Findlay : "Hegel"; p. 58.